يا دليل التائه ... يا عدوي.

(7)

هنا أشياء يطول انتظارها ولا تأتي وأشياء أخرى يتشوق إليها المرء إلا انه لا يحصل عليها إلا بعد أن يكاد يفقد الأمل ... انتظر " صابرة ". ثلاث سنوات ... وآخر كلمة قالها له صفوت في القاهرة أن " يصبر " فموضوعها يحتاج تخطيط وخروجها من البلد والإقامة معه في مصر يحتاج تدبير، خاصة وأن عيون أهل القتيل لن تغفل عنها، فهي الخيط الذي سيؤدي إليه ... وهي الطعم الذي يسقط به ... وهي الشبكة التي سيصطادونه بها، " صابرة " تأتي في المقدمة هي والطفل " نصر " وبعدهما الأم " نصرة " والتي قد لا تقدر على وجع البعاد ... وتخرج من البلاد وتذهب إلى الزاوي في المكان الذي اختبأ فيه ... والمطلوب مراقبة " صابرة " و " نصرة " خاصة وأن عائلة القتيل قد أعلنت عن عزمها على الثأر من " علي الزاوي " وحده ... وقالوا أنهم لن يمسوا أهله ... ولن يقتربوا من طفله " نصر " ... المطلوب علي الزاوي ... لا أحد سواه ... تحللت الأسرة من عبء الثأر إلا أنها لم تتخل عن مسئولية رعاية الزاوي وتوفير الدعم له والتمويه بقدر المستطاع وإن طال الأمد.

كان صفوت ابن خاله خيط الوصل بينه وبين القرية وأعمامه وأخواله وزوجته وأمه كان يسافر إليه كل شهرين أو ثلاثة ... يقضي معه ليلة الخميس ويغادر الجمعة ليلحق

بمدرسته ... لا يأتي محملا بشيء من إنتاج الصعيد ... يكتفي بشراء بعض الفاكهة قبل دخوله الحارة ويظل يحكي أخبارا وقصصا عن القرية وأهلها ... لم تنقطع الأخبار عن الزاوي ... فهو يعلم من مات ومن تزوج ومن أنجب ... ومن اشترى وماذا اشترى ومن باع وماذا باع ... في إحدى زيارات صفوت له ... استعرض معه الخطط لتهريب " صابرة " من القرية ... وقال له وأكد عليه ألا يتعجل ... فنجاح خطة تهريب " صابرة " ستطبق على خطة زيارات والدته " نصرة " التي بدأت تنتابها نوبات بكاء حاد ... تبكي على ابنها علي وتبكي على المرحوم زوجها الذي تركها صغيرة شابه ومعها كومة من اللحم ... علي وأخوته البنات.

الخطة أبسط ما يكون ... وضعها كبار العائلة وشاركهم صفوت نفسه ... لقد هرب الزاوي والقرية كلها تعلم أن أخواله هربوه ... ولابد من إطلاق إشاعة حول " قلة أصل " الزاوي وأنه أرسل ورقة طلاق لابنة خاله " صابرة " وأنه تركها لحالها بعدما أصبح من المتعذر عليه دخول القرية مرة أخرى ... دارت الإشاعة ... وصلت صابرة نفسها ... وطلبت منها " نصرة " التجلد بالصبر. الصبر نصيحة مرة في الصعيد ... الكل يتجرعها رغما عنه ... بعد فترة رحلت إلى بيت أبيها في دمنهور ... وقيل إن والدها " ضاحي " قرر أن يزوجها هناك ... وانه منذ البداية كان لا يرغب في تزويجها لابن أخته في الصعيد، فالبنت لم تعش هناك ... بل ولدت وتربت في بحري ... وكان من المفروض ألا يعيدها مرة أخرى للصعيد، إلا أن أخته أصرت على إتمام الزواج ... والفاتحة قد قرئت وهم صغار ... وقد أجل ضاحي الزفاف

أكثر من مرة ولسنوات بحجة صغر سنها ... وافق في النهاية مرغما وزفت إليه في القرية.

الفقر مؤسسة قائمة بذاتها في الصعيد رصيدها الوحيد " الحكاوي " والناس لا تشبع منها. صدقت " صابرة " أنها طلقت وأنها ستغادر إلى منزل أبيها، فهي لم تعد في حاجة للإقامة في دار الزاوي، كما أن علي نفسه لم يعد يلزمها بعدما فرط فيها وأرسل إليها ورقة الطلاق ... خرجت " صابرة " من القرية في حضنها قطعة من علي الزاوي وتشيعها نظرات النسوة فقد تم اتخاذ قرار سفرها، وحدد موعده في منتصف اليوم ... لتراها القرية كلها ... وجاء أبوها واصطحبها إلى محطة السكة الحديد في سفرية لم تشاهد بعدها القرية مرة أخرى.

مع كل زيارة يضيف صفوت لعلي الزاوي بعض التفاصيل ... أقامت صابرة في دمنهور وانقطعت علاقتها بالقرية، إلا القرية لم تنقطع علاقتها بها وخاصة أهل القتيل الذي ضاع أملهم في العثور على الزاوي بعدما انقطعت علاقته بصابرة. سافر احد أفراد أسرة القتيل إلى دمنهور بعد عدة شهور ليتأكد من رواية طلاق البنت واستعدادها للزواج من آخر ... وعاد ليؤكد صحة الرواية إلا أن البنت أفضل من الزاوي " وأصيلة " عنه ... رفضت عروض الزواج ... القصص لا تنقطع في القرية ... والنار تشتعل في قلب أم علي الزاوي " نصرة " رغم علمها أن كله من خطة الخداع والتي يجب أن تستمر إلى أن يأذن الله بجمع شمل أسرة الزاوي مرة أخرى.

لم تقدر " نصرة " صبرا على مغادرة وفراق ابنها علي وبعاد حفيدها " نصر " ... قررت السفر إلى دمنهور وحدها ... فقد سافرت إلى هناك أكثر من مرة ... لم تكن وحدها ... كان هناك من " يرقبها " استمرت في زيارتها أسبوعا وعادت للقرية وأشيع أنها طلبت من " صابرة " أن تتزوج ... فعلي أبنها وصابرة أيضا ابنتها ... الحواديت كثيرة وصفوت ينقلها له كما هي ويطلب من الزاوي الصبر فعندما يحين الوقت ... سيجد زوجته صابرة وابنه نصر يطرقان عليه باب حجرته وهو معهما ... فهو الوحيد الذي يعرف مكانه بالقاهرة ويدعو الزاوي الله أن يقرب البعيد، طال انتظاره سنوات ... ثلاث سنوات ... ووجد بالفعل زوجته صابرة وابنه نصر يسير بجانبها وأمامها خاله ضاحي وابن خاله صفوت، انتظر طويلا وبعد أن كاد يفقد الأمل تحقق المراد ... ها هو لم يطل انتظاره ... فقد مد يده لقسم شئون العرب ... أو أنهم بادروا وقدموا أياديهم وبها مبلغ ... أحصاه ... مائة وخمسين دينارا، عربون شغل وليس بالطبع " عربون محبة "! ولكنه لن يتعجل لماذا أهدوه مثل هذا المبلغ! سيعود إلى أبو طه ويبلغه انه عثر على عمل بمنطقة " علاوى الحلة " وأنه سيواظب عليه مع بداية الشهر الجديد ومن الآن سيتجول في بغداد دون خوف ويقترب من الناس دون تردد ... ويبحث عن ابنه علانية ويبحث عن الغائبين الآخرين، فقد اتفق على ذلك مع جبرائيل ولم يكن وحده ... فقد شهدت هذا الاتفاق صورة الرئيس صدام الضخمة المعلقة فوق رأس جبرائيل ... وأهله!

مـن منطقـة الأعظميـة حتـى شـارع الرشـيد ومـدخل " المربعة " اختلفت وجوه الناس فـي عيـون الـزاوي عمـا رأه أول مرة ... الوقـت ليـل ... والجـو صـحو ... وانقطـع المطـر ولمعت الشـوارع والسيارات وأوراق الشـجر ... المحلات لـم تغلق بعد ... إلا أن الحركة بطيئة تختلف عن حركة الصباح، الناس أنهكت، عائدون إلى منـازلهم بعـد يـوم عمـل طويـل وشـاق، فالكل هنا يعمل منذ الصباح إلـى مـا قبـل انتصـاف الليل ... والكل فرح بما يكسـب ... وفرح بما يدخر وفرح بما يلبس ومـا يأكـل ... والبعـد عـن الأهـل لـيس بمشـكلة ... محلات كثيرة وضعت أرففا صغيرة بجانب المدخل ... عليهـا تليفون ... وقائمة بأسعار المكالمات إلى مصـر ... القـاهرة غير الإسـكندرية ... وبحري غير قبلي ... قرأ يافطـة معلقـة بمدخل مطعم تقول ... اتصل بالقـاهرة بعـد الثامنـة مسـاء بتخفيض، أخرج مـن جيبـه ورقـة مـدون عليهـا رقـم تليفـون الحاج ياقوت ... وطلبه مكالمة ... وزف بشرى وصـوله إلـى بغـداد سـالما وطلـب منـه أن يرسـل تحياتـه لأم نصـر وأن يخبرها انه سيتصل كل خميس في العاشـرة مسـاء تقريبـا وسأل الحاج ياقوت إذا كان يرغب هو أو بناته في أي شـيء من بغداد ... وتعلم أن ينهي حديثه مثل العراقين بجملـة " في أمان الله ".

ندما اقترب مـن الحجـرة وجـد البـاب مواربـا وأبـو طـه قـد افترش الأرض ويكاد القلق يقتله، تأخر الزاوي أثار حنـق أبـو طه، فهو قادم جديد لا يعرف بغداد ... نعم ... لا احـد يفقـد الطريق فيها، إلا أن هناك من يعتدون على المصـريين فـي الشوارع والطرقات ... يقولون هذا أصيب بطلـق نـاري خطـأ

وذاك دهسته سيارة والناس هنا مثل مصر لا تصدق الروايات الرسمية حتى لو أقسم الحكام على المصاحف، تراث طويل من المخادعة أفقد الناس الثقة، انفعل أبو طه في الزاوي ونبه عليه إذا تأخر مرة أخرى فيجب إبلاغه مسبقا فقد ظن الظنون وشعر انه سيفقد الزاوي أيضا مثلما فقد ابنه، طمأنه الزاوي بان عمر " الشقي بقي " فهو لم يفقد الطريق في القاهرة ولن يضيع أيضا في العراق وعاتبه على عدم إغلاق باب الحجرة، فمن الممكن أن يتسلل احد ويسرق حقيبة الزاوي أو يسرق ملابس أبو طه المعلقة على جدار الحجرة، أشاح أبو طه بيده مبتسما ومستنكرا واستعرض خبرته في شئون العراق وأهله ... خبرة الخمسة والستين يوما والتي قضاها كلها في البكاء على ولده طه باستثناء الأمس ... عندما قابل الزاوي ... وكان دواءه وشفاءه ... فقد كف عن البكاء وأدرك أن هناك غيره في هذه المصيبة إلا أنهم أقوى منه وأكثر صلابة.

لا خوف على الإطلاق من ترك المنازل مفتوحة أو المحلات – يفسر أبو طه – العراق به كل أنواع البشر من كل بقاع العالم، إلا اللصوص ... بها تجار مخدرات وقوادون وتجار عملة وحتى اللصوص الذين يأتون إليها يعلنون توبتهم بمجرد دخولهم، فالمجال واسع لكسب الرزق والشرطة هنا لا تستخدم ورقا أو أقلاما ويبدو أنهم لم يتعلموا من الأساس كتابة المحاضر أو البلاغات، إذا قبضت الشرطة على قواد، فهناك اخذ ورد فالقواد لا يعمل في الغالب وحده، أما إذا ألقت القبض على لص، فنصيبه طلقة رصاص في ظهره أو رأسه وبيان الشرطة جاهز ... " أطلقت عليه

الشرطة النار لعدم امتثاله للأوامر بالوقوف " ... وتحكي قصة اللص ويزيد فيها وعليها ومن هنا كانت توبة اللصوص على أستار بغداد وليس الكعبة ... ليس خوفا من الله وطمعا في رحمته، استغفر الله ولكن خوفا من الموت على أيدي الشرطة.

أخبره الزاوي برحلته الطويلة منذ خروجه عصرا حتى عودته وأنه تنقل في أحياء عديدة واستقل أكثر من تاكسي وشاهد مناطق لم يشاهدها وقابل أناسا لم يخطط لمقابلتهم قال ... وشرح ... وأسهب، إلا انه لم يقل الحقيقة ... لم يقل له انه قابل جبرائيل عبد الجبار ولم يذكر له ما دار في المقابلة، فقد طلب منه ألا يخبر أحدا ولم يحك له عن قصة المائة وخمسين دينارا، إلا أن بطاقة التموين لا يمكن إخفاءها، فقد ذكر له أن قابل احد معارفه وساعده في استخراج بطاقة تموين له وللأولاد الذين لم يحضروا بعد من مصر وأن هذه البطاقة، ستساعدهم في الحصول على احتياجاتهم بسعر مناسب مثلهم مثل العراقيين تماما ... وأخرج البطاقة من جيبه وأعطاها لأبو طه ... وقبل أن يلقي أبو طه نظرة عليها، أضاف له قصة عثوره على عمل لدى محل عطارة كبير بالقرب من موقف الأتوبيس وأنه سيبدأ العمل مع بداية الشهر وحتى ذلك الموعد سيقسم أحياء بغداد ويبحث عن ابنه " فرج " وعن " طه " وبعد أن ينتهي من بغداد سيخرج إلى المدن القريبة بصحبته وإن لم يستطع السفر معه، فهو سيقوم وحده بالمهمة على أن يدفع أبو طه جزءا من تكاليف السفر! مر بسرعة على جزئية تكاليف السفر تلك، فإذا

تقبل أبو طه الفكرة ودفع ... خير وبركة وإن لم يدفع قد أصبح عليه واجبا وإلزاما منه بالبحث عن طه وانفرجت أساريره فرحا عندما أخبره انه اتصل بالقاهرة وسأل على أم العيال وانه وعدهم بالاتصال أسبوعيا، إلا أنه تظاهر بالموافقة على نصيحة أبو طه بالاتصال بهم مرة واحدة على الأكثر في الشهر تدبيرا للنفقات!

" علاوى الحلة " مركز العالم بالنسبة للزاوي وقهوة " شمس الكرخ " هي البؤرة والمنطلق ... خط البداية والنهاية، يلف ويدور ثم يعود إليها ... نادى على الجرسون وطلب إفطارا وشايا ... وقد شعر في هذا الصباح انه قادر على التهام جمل، فالطريق من المربعة إلى علاوى الحلة وعبور الجسر واستنشاق هواء الصبح طهر صدر الزاوي من دخان المعسل الذي اعتاد تدخينه ليلا مع أبو طه ... سأل الجرسون إذا كان احد قد سأل عليه، مؤكد على مسامعه عندما حاول أن يتجاهل سؤاله، بان اسمه الحاج علي الزاوي قد يأت البعض للسؤال عليه في هذا المقهى ... اسمه الحاج علي الزاوي، فهو ليس اقل من الحاج ياقوت ولا أدنى من الحاج سعيد النظيف الذي صدع أبو طه رأسه به من كثرة أحاديثه المستمرة عنه وأضاف للجرسون بضرورة إبلاغه عن أي مصري يظهر في المنطقة يكون قد جاء للبحث عن ابنه أو أخيه فقد قرر منذ اليوم القيام بهذه المهمة بدلا من الناس الغلابة!

توقف على باب المقهى بعض الوقت قبل أن يتوجه إلى الحاج إبراهيم الحلي صاحب متجر العطارة ... اكتشف أن هناك " بروازا " ضخما على جدار المقهى من الخارج معلق

فيه صفحات جرائد يتوقف البعض عندها ... يطالعونها ... يقرأون أشياء منها ثم ينصرفون لحال سبيلهم، قال لنفسه من الممكن أن يتم وضع صور المصريين التائهين داخل هذا البرواز وأسمائهم وأن يطلب من الذين يعثرون عليهم أو تعاملوا معهم أن أو ممن لديهم معلومات الاتصال بالحاج علي الزاوي في هذا المقهى ... إلا انه خشي أن يفصح عن رغبته تلك للجرسون قبل مقابلة جبرائيل عبد الجبار ومناقشة الأمر معه ... انتهى من تناول إفطاره وشايه وألقى بمائة وخمسين فلسا فقط للجرسون ... أخذها ولم ينطق، لقد علم حقيقته بعدما أخبره جبرائيل عبد الجبار أن هذا الجرسون ليس أمينا ولصا!

الجو اليوم صحو ... والتمشية في الطريق ومشاهدة الناس بعيون صافية متعة ... الناس يتحركون فرادي وجماعات ... لا فرق على الإطلاق بين ملابس الناس في القاهرة أو الصعيد أو بغداد ... استثناء واحد لقطته عيناه وهو أن هناك رجالا يرتدون سراويل واسعة وفضفاضة ويلفون وسطهم بحزام من القماش ... بعض هذه الأحزمة من لون واحد والأخرى بها نقوش ورسوم ملونة ... كما أن طريقة وضع " التلفيحة " غير الوضع الذي يعرفه ... بعضهم شباب صغار السن وآخرون في عمره أو يزيد من هذه النوعية أصحاب محلات يجلسون أمامها لأخذ قسط من شمس الشتاء، يبدو أنهم لا يعرفون أن التعرض لشمس الشتاء ليس صحيا ويسبب أمراض العظام وكانت أمه تحذره من الجلوس في الشمس خاصة في شهري طوبة وأمشير، ولكن أين تباع هذه السراويل الواسعة، فهي تبدو

مريحة وناعمة وقد يسأل أبو طه عن هؤلاء الناس وأين سوق الملابس في بغداد ... عرج على إبراهيم الحلي العطار ... ألقى عليه السلام وأشار له بأصابعه ... ثلاثة ... باقي ثلاثة أيام ويأتي لتسلم عمله ... لقد مضى من المهلة ما يقرب من ستة أيام، قضاها في التجوال في شوارع بغداد.

الكرخ غير الرصافة ... رغم أن الفاصل بينهما كوبري ويبدو أن هذا شأن الدول العربية جميعها ... ففي القاهرة ... الزمالك غير بولاق ويفصل بينهما كوبري ... الكرخ ملتقى الناس من جميع محافظات العراق ويبدو أنها ميدان رمسيس " بتاعهم ". ناس من بحري وآخرون من قبلي وإن ظل الرجال أصحاب السراويل الواسعة يثيرون خياله، فربما يكونوا صيادين، فقد شاهد في التليفزيون بالقاهرة أناسا يرتدون مثل هذه السراويل ويتحدثون بلهجة قريبة من لهجة أبو طه ويعملون بصيد الأسماك ... وعندما دخل المقهى، راقب الجرسون عيونه وهي ملتصقة على السروال، فانحنى عليه وهمس في أذنه وأعلمه أن هذا الرجل كردي ... من الأكراد " بتوع " الشمال إلا أنهم منتشرون في جميع أنحاء بغداد ولهم مقاهيهم الخاصة وأغلبهم من مدخني المعسل والشيشة. وهم مثل أهالي الصعيد لا يتفاهمون وبينهم وبين بعضهم ما " صنع الحداد " قتل وثأر ومطاردة ... المهم عرف أخيرا أن هناك صعايدة يعيشون في مناطق خارج مصر من شمال العراق وليس من جنوبها كما في مصر.

حفظ علي الزاوي منطقة " علاوى الحلة " جيدا ... المحلات والمقاهي والوجوه الدائمة هناك وأقام علاقات ود مع سائقي الأتوبيسات وقد علم الكل انه جاء إلى بغداد للبحث عن ابنه وقد وزع المزيد من صوره وفي انتظار الرد ... يبدأ يومه بمنطقة " علاوي الحلة " ثم يعبر الجسر عائدا إلى الرصافة ... أهلها غير وناسها غير ... يبدو أن أغلبهم من الموظفين ... باستثناء حي " المربعة " الذي يعيش فيه مع أبو طه ... فهو أشبه بالمستعمرة المصرية ... يتمشى في شارع الرشيد بعد الوصلة الأولى في البر الثاني ... الشارع أطول من أي شارع آخر يبدأ من باب المعظم وينتهي بميدان التحرير ... لديهم أيضا ميدان بنفس اسم ميدان القاهرة ... حتى شارع الرشيد هذا له ابن في روض الفرج شارع اسمه " ابن الرشيد " اقصر قليلا من شارع الرشيد نفسه ... يمتد من جزيرة بدران إلى ما قبل مزلقان النجيلي الذي يفصل روض الفرج عن منطقة السبتية، شارع ابن الرشيد هذا كان آخر حدود الزاوي الشرقية في مهام البحث عن " العيال " التائهة!

المحلات في الكرخ بسيطة وشعبية ورخيصة ويشعر الزاوي أنها مفتوحة لأمثاله بينما محلات شارع الرشيد غاية في الأناقة ... واجهات زجاجية ضخمة وإضاءة ... وكل شيء " مكتوب " عليه سعره ... ولا أحد يفاصل أو يجادل في البيع أو الشراء ... استثناء واحد في شارع الرشيد ... قرب نهايته ... سوق مسقوف به كل أنواع البضائع ... يطلق عليه السوق العربي كل شيء فيه يخضع " للفصال " والمناقشة ... من " السوق العربي " ... ابتاع لنفسه "

تلفيحة " عربية جديدة، لفها على رأسه ورقبته مثلما يفعل العراقيون ... فهو لا يعلم متى تنتهي رحلته وعليه أن يعيش حياته ... سقطت عيناه على بعض الملابس النسائية المحتشمة التي تليق بزوجته " صابرة " إلا انه اجل الشراء بعدما عرف سعرها فهي ليست غالية السعر ... " ولا تغلي " على أم نصر ولكن هذا ليس موعد الشراء.

عبر جسر الأحرار للمرة لثانية هذا اليوم عائدا إلى الكرخ حيث المقهى وأبو طه، الذي أبلغه قبل خروجه في الصباح انه سيلحق به في المقهى بعد الظهر لارتباطه بمواعيد ... بداية الجسر من الناحية الغربية مسجد كبير وفندق اكبر ومن نهايته في الطرف الآخر برج مبنى الإذاعة والتليفزيون، فقد تعلم منذ أن كان صبيا أن يحدد الاتجاهات الأربعة بحري ... قبلي ... وشرقي وغربي ... من يعرف الاتجاهات لا " يتوه " ... في المقهى وجد أبو طه في انتظاره وبصحبته احد سائقي الأتوبيسات الذين وزع عليهم صور ابنه " فرج " ... قبل أن ينطق بالتحية والسلام ... أطلق صيحته " يا دليل التائه ... يا عدوي " والتي لم يعد يجد في إطلاقها غضاضة في أي مكان ... السائق فيما يبدو لديه أخبار ... فهو قادم من محافظة ديالي شمالي بغداد ... لقد حفظ الزاوي أسماء بعض المحافظات قدر استطاعته ... وإذا كانت محافظة جبلية أو سهلية ... فيها نهر أو ليس بها أنهار.

محافظة ديالي تلك تقع على نهر يحمل اسمها ومركزها الرئيسي مدينة بعقوبة وقد قرأ له هذا الاسم مرارا من

خلال خطابات فرج ... حمل آخر خطاب اسم القرية التي تدعي " الخالصة " شمال بغداد على بعد نصف ساعة أو أكثر قليلا بالأتوبيس، يقال إن المسافة بينها وبين بغداد لا تزيد عن 30 كيلو متر ... في " الخالصة " تعرف فرج على زوجته العراقية وانتقل للعيش معها والعمل في مدينة عائلتها.

أخرج السائق صورة فرج من جيبه وأعطاها للزاوي، مشيرا انه توصل إلى العائلة التي تزوج فرج إحدى بناتها وهناك الكثير من الناس الذين يعرفون فرج جيدا، أثنوا عليه وعلى أخلاقه وتربيته وشهامته وقيامه بمساعدة القادمين الجدد من مصر ومساعدة أهل القرية أيضا ... يبدو أن " الولد " تغير، فهو في مصر كان مثل أبيه ليس له " خلطة " بأحد إلا أن اتساع معارفه كما يقول السائق ينبئ بأن هناك تغييرات حدثت في حياة الولد، الزاوي يسمع بكل حواسه وبدأ العرق يتصبب من جبهته رغم برودة الجو ويستحث السائق أن يحكي بلا توقف إلا انه يرتشف رشفة الشاي قبل كل جملة ينطق بها ... البنت من عائلة " هاشم " واسمها " عامرة ".

المعلومات التي جاء بها صحيحة، فقد أخبرهم فرج في الخطاب الخير الذي أرسله وبه صورة العروس أن اسمها " عامرة " وها هو السائق يؤكد اسمها ... عامرة منور هاشم. الكلام صحيح إلا انه لم يأت بجديد، تداخل أبو طه وسأل السائق إن كان قد عثر على احد يعرف " طه " رشف رشفة شاي بصوت عال ولم يكترث بسؤاله واستمر في توجيه حدثه إلى الزاوي، الأسرة ... أسرة البنت

انتقلت كلها من المكان ... رحلت إلى مدينة أخرى، لا يعرف احد على وجه التحديد قبلتهم، بل تضاربت الأقوال ... ناس تقول رحلوا إلى السليمانية ... آخرون يؤكدون أن أسرة البنت نقلت تجارتها إلى مدينة الحلة وهناك مصريون أكدوا أن هناك شخصا يدعي فرج على محمد يوسف ... ولا يعرفون لقب الزاوي على الإطلاق – قد سافر إلى الناصرية واتصل بهم تليفونيا من هناك ... طلب الزاوي من السائق أن يعيد على مسامعه أسماء المدن الثلاث بشيء من الوضوح والهدوء ... السليمانية ... الحلة ... الناصرية.

(8)

نظر إلى أبو طه ليسأله أين تقع هذه الأماكن وبدلا من يجيبه انفجر في نوبة بكاء حركت أحزان كل المصريين والعراقيين المتواجدين بالمقهى ... أحضر الجرسون له على عجل كوبا من الماء وطلب منه الصلاة على النبي، فقد كف عن البكاء منذ أن تعارف على الحاج الزاوي، فما الذي أبكاه من جديد ... أسئلة الجرسون لم يجد الزاوي أنها تستحق الإجابة، فهو يردي أن يعرف ماذا دار بينهم وبين السائق العراقي الجالس معهم، وطلب منه أن يحضر ثلاثة أكواب من الشاي ولا يشغل نفسه بالتفكير في شئون الغير وأن يدفع الملك للمالك! أعاد السؤال على السائق أين هذه المدن الثلاث وهل هي قريبة من بعضها أو قريبة من بغداد، ضحك العراقي ضحكة مجلجلة، فقد اعتاد على أسئلة القادمين الجدد الذين لا يعرفون العراق ومسالكها ... العراق بلد شاسع مترامي الأطراف ... مصر تعيش كلها على نهر واحد ... والعراق تجري فيها شبكة من الأنهار ... مدن مصر يحكمها خط النيل المستقيم ومدن العراق متناثرة على أنهارها المتعرجة ... وأنهى السائق درس الجغرافيا موضحا أن السليمانية في الشمال ... أقصى الشمال الشرقي بينما الحلة في الجنوب الشرقي والناصرية قبل البصرة ... آخر مراكز قبلي في العراق.

المهم أن هناك أخبارا عن ابنك، لم يختطفه احد ولم يصب بمكروه ... خبرة الشهرين أو ما يزيد دفعت أبو طه

للنطـق والحـديث، موضـحا أن هنـاك مـن تكلـم عـن ابنـك وتنقلاته والحديث عنه ... مجرد الحديث عنه بلا خوف يؤكد انه حي يرزق، خاصة وأن الكثير من المصريين بـدأوا حركـة من التنقلات داخل العراق بعد انتهاء الحرب الإيرانية، مـنهم من ترك الجنوب واتجه للشمال ومنهم من غادر بغداد إلـى الجنوب استعدادا لعمليـات البنـاء والإعمـار، مسـح أبـو طـه عينيه من بقايا الدموع وتحدث حديث الخبراء ... ابنك " فرج " بخير ... والله العظـيم بخيـر ... إلا أن عقـل الـزاوي تجمـد عندما علم ببعد الأمـاكن الثلاثـة عـن بعضـها وأخـذ يتـرجم المدن بالمصري ... أما أن يذهب إلى الإسكندرية أو يذهب إلى البحر الأحمر والغردقـة أو ينتقـل إلـى أسـوان ... كيـف يذهب إلى المدن الثلاث وماذا يحدث إذا وصل مدينة وقابل بعـض ناسـها ليخبـروه أن ابنـه انتقـل بـالأمس فقـط مـن الإسـكندرية إلـى أسـوان أو انـه ركـب القطـار العائـد الـذي أوصل الزاوي إلى هذه المدينة ... القصة تحتاج إلى تفكيـر وبعض التدبير وأيضا إلى الصبر والروية. القضية تحتاج صفوت ابن خاله ليحسب له الخطوات ويوجه إلى المكان الصحيح! شكر السائق العراقي واستأذن من " أبو طه " في العـودة للمنـزل ... فقـد " مالـت " الشـمس وهـي تشـق طريقهـا للغروب!

زادت الأيـام كآبـة ... وأصـبحت مثـل بعضـها، فالأحاديـث هي نفس الأحاديث والأماكن هي نفـس الأمـاكن والوجـوه مملة وثابتة. قرر ألا يـذهب إلـى الكـرخ فـي الغـرب إلا كـل ثلاثة أو أربع أيام وأن يظل فـي البـر الشـرقي ويبحـث عـن مقاه أخرى ووجـوه جديـدة ... لعـل وعسـى أن يعثـر علـى

خـيط يدلـه إلـى " فـرج ". مهمتـه فـي " عـلاوى الحلـة " انتهت، خاصة وأن الحاج إبـراهيم الحلـي العطـار اعتـذر لـه بأدب عن عدم توافر فرصة العمل التي وعده بها، حيث قـرر الولد المصـري الـذي يعمـل لديـه إلغـاء أجازتـه هـذا العـام، بعدما شعر بأن هنـاك مـن سـيأتي ليحـل محلـه وحتـى لا يظن الزاوي به الظنـون نـادى الحـاج إبـراهيم علـى العامـل ليحكي وبنفســه أمـام الـزاوي لمـاذا ألغـى أجازتـه، العمـل ليس الهدف ... لقد جاء من اجل ولده وقد علم بذلك الحاج إبراهيم ... وأخبره انه " حاضرين " في أي شـيء يطلبه ... إذا احتاج فلوس فهو جاهز وإذا احتاج مكانا للإقامة، فهنـاك غرفة ملحقة بالمخزن ومجهزة تتسع لعشرة من العمال ... طيبة نادرة وأصالة عربية واضحة تكشــف عـن نفســها فـي كل جملة ينطق بها الحاج إبراهيم الحلي.

ربما يكون الحاج إبـراهيم الحلـي هـذا مـن مدينـة الحلـة التي قيل إن " فرج " قد يكون سافر إليها، لقد ذكر له الحاج إبراهيم في بداية التعـارف انـه مـن بعقوبـة وأن " الحلـى " هـذا مجـرد اسـم لا علاقـة لـه بالمكـان، فهنـاك فـي روض الفرج مسجد له مقام باسـم " سيدي الحلي " بالقرب من شـربط الترام في شـارع أبـو الفـرج وهـو لـيس بـالطبع مـن العراق ... وربما يكون من هناك، يسأل الـزاوي ويـرد علـى نفسه وأكثر ما يخشاه أن يصاب بـ " لطف " مثل أبو طه ... سأل الحاج إبراهيم عن سبب التسـمية وإذا كانـت اصـوله من الحلة أو أن الأسماء في العـراق مثـل أسـماء مصـر ... على طنطاوي من أسـيوط وأحمـد البنهـاوي مـن المنصـورة

ومصطفى المنوفي من كفر الشيخ وليس له أدنى علاقة بالمنوفية.

جلس مع الحاج إبراهيم والجلوس معه أصبح له مذاق خاص، فالرجل يكرم الزاوي غاية الكرم وتحولت تحيته من مجرد تقديم كوب شاي ... إلى شاي وتمر وأشياء أخرى والحديث معه شيق لا يرغب الطرفان في إنهائه، فقد نمت بينهما علاقة من نوع خاص ... علاقة محبة وود لوجه الله، سأله عن أصل لقب العائلة ... وذكر له " سيدي الحلي " " بتاع " روض الفرج. الحاج إبراهيم الحلي أكد له أن سيدي الحلي هذا عراقي ... ذهب إلى مصر منذ أزمان وأقام فيها ... وكان وليا من أولياء الله الصالحين وأن اسمه الشيخ محمد عز الدين الحلي، إلا أن المصريين يطلقون لقب " سيدي " على كل شيخ له كرامات وقد كان للحلي كرامات، أما أصل الحاج إبراهيم، فإنه من الحلة فعلا ... أصوله من هناك ... جاءوا وأقاموا في هذه المنطقة ... وسكنه فوق المحل وحكى له الكثير عن سبب تسمية " علاوى الحلة " بهذا الاسم ... أبلغه الزاوي بأن هناك من قال أن ابنه ذهب إلى مدينة " الحلة " ووعده الحاج إبراهيم خيرا ... وطلب منه ألا يذهب إلى هناك إلا بعد أن يتأكد هو من معارفه إذا كان فرج علي محمد يوسف قد أقام هناك لبعض الوقت أو لا ... حتى لا يضيع جهده ... ولا يشتت تفكيره وطلب منه الصبر، وطلب منه ترديد الآية القرآنية " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " فهي تفرج الكرب وأنقذت سيدنا يونس من جوف الحوت.

الأيام مثل بعضها ... وعيون الزاوي رأت ما لم تره من قبل في بغداد ... شباب عراقي " زي " الورد مصاب أو معاق ... بعضهم يجلس على عجل ويدفعه احد الأشخاص ... هؤلاء بالطبع نتاج الحرب الإيرانية، فقد شهد مثلهم في مصر بعد حرب 67 ... بدأت أذناه تلتقطان أشياء جديدة، هناك من المصريين من شاركوا في هذه الحرب ... تطوعوا في الجيش وأغدقوا عليهم ... منهم من عاد ... ومنهم من جاء أهله للبحث عنه كما جاء الزاوي يبحث عن ولده ... يا خفي الألطاف ... لو ترك نفسه للهواجس سيصبح مثل " أبو طه " قد ينفجر في البكاء لأتفه الأسباب ... الصبر ... لقد ظن أن مهمته سهلة ... وانه سيعثر على ولده بمجرد أن ينزل بغداد ويطلق صيحته ... " يا دليل التائه ... يا عدوي " ... ويبدو أن عدوي هذا ليس له سحره في العراق ولا أثر له ولا مفعول!

غير المقاهي والجلسات ... إلا أن جلوسه في بعض المقاهي ليس مرغوبا فيه، بمجرد دخوله يغادر المصريون المقهى على عجل ... فهم يتخوفون من أي وجه جديد ... والكلام الذي بدأت أذنه تلتقطه كثير منه يقول إن مصر أرسلت رجال شرطه. تابعين لتنفيذ الأحكام وسمحت لهم السلطات العراقية بذلك، فهي لا ترغب الآن ي المصريين والبعض يقول إن " المربعة " تحولت إلى مركز لإيواء الخارجين على القانون. كلام المصريين كثير ... وخاصة " البحاروة " ... لابد له من حماية أو واسطة تقدمه للناس، وليس هناك أفضل من " أبو طه " الذي أصبح يلازمه كظله ... واطمأن له المصريون المقيمون في حي المربعة ...

فكلهم يعرفون أبو طه ويعرفوه علاقته بالحاج سعيد النظيف عمدة الدمايطة وتحول الزاوي إلى علامة بارزة من علامات محلة السلطان علي ... وبدأ يتقرب من الناس وسمح لهم بالاقتراب منه، فالناس تخشى ما تجهله ... وعلم الكل أن الحاج الزاوي مثل " أبو طه " جاء للعراق للبحث عن ابنه التائه أو الضائع ... وأساه البعض وطمأنوه بعد أن اطمأنوا على أنفسهم وتأكدوا أن الحاج الزاوي ليس من التابعين لتنفيذ الأحكام في مصر، كما انه ليس من رجال الاستخبارات العراقية وإن كان هناك من يتوجس منه خيفة!

وزع أكثر من عشرين صورة لابنه فرج على كل الناس ... عراقيين ومصريين ... سأل عن اكبر تجمع للمصريين خارج " المربعة " ... ذكروا له أن العديد من المصريين يتوافدون في الأيام الخمسة الأولى من كل شهر أمام بنك " الرافدين الرئيسي " في منطقة " الشرورجه " ... تعود أن يذهب إلى هناك في بداية كل شهر ... الشهور تمر والشتاء انتهى دخل الصيف بكأبته وحراراته ولزوجته ... الجو أصبح خانقا ... ولا نسمة هواء في الشارع أو الحجرة رغم أنهم في منتصف شهر أبريل، المروحة المعلقة بالسقف تئن تحت وطأة الهواء الثقيل ... ونقوذه تكاد أن تنتهي، ولابد من البحث عن فرصة عمل حقيقي ... خاصة وأن رجال جبرائيل عبد الجبار قد اختفوا ولم يلمح منه الزاوي أحدا ... وهو الذي ظن في البداية أنهم قد يساعدونه في العثور على ولده ... أو على الأقل في العثور على فرصة عمل يقتات منها!

المطاعم والمقاهي بدأت في تشغيل أجهزة التكييف ... إلا أن المقـاهي المغلقـة تلـك التـي لا تقـدم الشيشـة، استبدلها على الفور بتدخين السجائر، أصبح هناك مصروف جديد للسجائر ... العلبة بمائة وخمسين فلسـا ... وهنـاك امرأة في منتصف محلة السلطان علي تبيع سجائر " فـرط " ... أصبح يكتفي كل يـوم بخمـس سـجائر فقـط ... جـرب كل أنواع السجائر ... لاذعة وحريقه مثل " الشطة ": بغداد ... سـومر ... بابـل ... لـوكس ... لا فـرق بينهـا ... وهنـاك كليوباترا، إلا أن العلبة أغلى خمسـين فلسـا. اعتـاد علـى المرأة ... واعتادت عليه ... لا ينظر إليها ... يشترى خمس سـجائر وينصـرف لحالـه ... لا يعـرف إذا كانـت عراقيـة أو مصرية وإذا كانت مصرية هل جاءت هنا لتبيع السجائر أو قد تكـون مثلـه قـد جـاءت للبحـث عـن ابـن لهـا، وانتهـى بهـا المطاف إلى بيع الدخان، بدأ ينظر إليها نظـرات خاطفـة ... امرأة " شرحه " و " عفيه " مثل أهل الصعيد ... سـمراء " متلفحة " بشال أسود من القطيفة، لا يظهر منها إلا وجهها وكفاها ... سأل أبو طه عنها ذات مرة ... قـال لـه أنهـا " أم غائب ".

أم غائب ... من غاب لها؟ هذا لا يهم، الأهـم غائبـه هـو ... " فرج " ... ألقى تحية الصباح وأخـذ سـجائره الخمسـة منها ودخل المطعم المقابل والـذي تحـول إليـه بعـدما تـرك مقهى " شمس الكرخ " شـباب زي الفـل يديرونـه ... لقـد اشترياه من صاحبه العراقي ... على حشيش وفتحي جزر ... دمايطه، جاءا منـذ عشـر سـنوات إلـى بغـداد ... أطلقـا على مطعمهمـا اسـم مطعـم " الصـداقة " وعنـدما سـاءت

الأمور والمعاملة سمياه مطعم " مصر " ... الصداقة سابقا ... إلا أنه ارتبط بصداقة حقيقة مع الزاوي ... أغلب وقته يقضيه عندهم ... اكتشف أن أغلب رواد المطعم لا يتغيرون ... وضيوفهم أيضا ... يتردد على المطعم أيضا شخص عراقي يحمل كاميرا وتتدلى من على كتفه حقيبة ... ينادي على بضاعته " صورة ... وجواب " ... عرف أن يلتقط صورا للمصريين ويكتب لهم الخطابات خاصة وأن المصريين لا يأمنون لبعضهم في الغربة.

عرفان فقط ... لا احد يعرف بقية اسمه وإن كان هناك من يضيف مهنته إلى اسمه ... عرفان المصوراتي ... يأتي إلى المنطقة أحيانا في كامل زينته، مرتديا بدلة كاملة ورباط عنق وأحيانا أخرى يظهر في المربعة بقميص رث وكأنه انتزعه من فم كلب، قلة حديثه مع الناس وتحمله لرزائلهم جعله غامضا بعض الشيء يقول المصريون أنه يعيش معهم في المربعة ولكن لا احد يعرف له منزلا ... ابغض يؤكد أن عرفان يعمل في هذه الوظيفة المستحدثة ... التقاط الصور وكتابة الخطابات بعد الظهر فقط بينما يعمل صباحا في إحدى المصالح الحكومية وهناك من يجزم بأنه موظف محترم وآخرون يؤكدون انه يعمل في الخدمات المساعدة ... اللفظ الوظيفي المهذب لكلمة " فراش " ... بينما هو لا يتحدث عن نفسه على الإطلاق مهما حاول البعض استثارته.

المصريون في الغربة لا يكفون عن الحدث في شئون الآخرين ولا يملون من تكرار نفس القصص والشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص عندما ينتقل من شخص إلى آخر ...

هو الكلام ... وعرفان سعيد بالقصص التي تنسج حوله ... لا يحاول أن ينفيها أو يثبتها ... يترك من يتكلم كأنه لا يسمعه ويستمر هو في التقاط الصور وكتابة الخطابات وتوثيق علاقاته بالمصريين، أصبح مثلهم في كل شيء ... يدخن السجائر المصرية ويعرف الفرق بين المعسل التفاح والزغلول ولا يزيد رد فعله عن الابتسامة الهادئة ... البعض يتهمه علانية بأنه يعمل في الاستخبارات العراقية أو على الأقل قسم شئون العرب، والوحيد الذي يجزم أنه ليس منهم على الزاوي إلا أنه لا يستطيع أن يبوح بأكثر من ذلك، فهو لا يستطيع أن يقول أن جميع أفراد الاستخبارات العراقية مثل جبرائيل عبد الجبار ولو قال ذلك لسأله المصريون من أين تعرف جبرائيل ... يكتفي فقط بالدفاع عنه بكلام عام لا يؤخذ عليه ... مؤكد انه من أصل طيب ويعشق مصر والمصريين ويخاف عليهم، فهم مصدر رزقه، ورغم طول لسان أهل المربعة من العراقيين والمصريين، فان اختفاء عرفان المصوراتي ليوم أو أكثر يوحد صفوفهم للبحث عنه والسؤال عليه مما يشير إلى وجود حب متبادل بينهم وبين عرفان المصوراتي الذي تحول مع مرور الأيام إلى علاقة مميزة من علامات محلة السلطان علي ... أم غائب في منتصف الحارة وعرفان في أولها أو أخرها يقطع الحارة ذهابا وإيابا ... يدخل المقاهي ويخرج ... على كتفه شنطة جلدية عتيقة ويهمس قائلا " صورة وجواب "! يغرق في عمله ولا تفارق الابتسامة شفتيه.

الكل يداعب " المصور " ويتهمونه أن خطاباته لا تصل لذويهم، يكتفي بالابتسام. يؤكد فتحي جزر صاحب

المطعم أن " عرفان " هذا ظهر في المربعة بعد وصول أول أمي مصري ... كان يكتب له الخطاب ويلتقط له صورة ... الخطاب والصورة والظرف وطابع البريد بدينار ... يتهمه البعض بأن خطاباته واحدة ... صيغة واحدة ... يسأل فيها عن الأهل والأحباب ولا يختلف في خطاباته إلا مبلغ التحويل ... مائة دولار مرسلة لكم ... أو مائتان ... وهو يستمع ويكتب أشياء أخرى غير التي تملى عليه ... احترف هذه المهنة ويتنقل من مقهى إلى آخر ... أكثر أيامه ازدحاما أيام الخميس وأوائل الشهور ... يصورك داخل المقهى ... ويحضر لك صورة خلفيتها تمثال كبير للرئيس صدام وهو يرفع يده بالتحية وكأنه يرسل تحياته إلى أهل مصر! هناك من يتهمه بأنه يعمل مع المخابرات العراقية ولديه مخزون هائل من أسرار المصريين ... وأهمها مواعيد سفرهم في الأجازات وهي ما يخفونه على بعضهم البعض خشية من انتقام الغرماء ... الذين يتصلون هاتفيا بالشرطة وإبلاغها كذب بأن " فلان الفلاني " المسافر يوم كذا ... يهرب دولارات بطريقة غير رسمية ... وآه على من يقع ... يعامل معاملة غير إنسانية في المطار ويؤخرونه عن موعد إقلاع الطائرة ... الزاوي يسمع ... إلا انه توقف عن السماع ولم تدخل أذنيه كلمة واحدة بعدما قال فتحي جزر بأن هناك من يتهمون " عرفان " بالعمل مع المباحث أو المخابرات العراقية!

نادى على " عرفان " وطلب منه بعد أن جلس بجانبه أن يكتب له خطابا يرسله لأهله في القاهرة وأن يلتقط له صورة بالكوفية الجديدة ... ووضع في فمه سيجارة

وأشعلها ... التقط عرفان الصورة وبدأ الزاوي يملي عليه الخطاب ... " البلد جميلة إلا أن الظروف صعبة ... ما زلت أبحث عن فرج وقد تعبت من البحث ... قد أعود خلال أسبوع أو أسبوعين ... ولا ينقصنا إلا رؤياكم والسلام ختام. أبوكم على محمد يوسف الزاوي ... ملحوظة: سلامي إلى الحاج ياقوت وأسرته كثير السلام ... كتب " عرفان " العنوان الذي أملاه عليه الزاوي ... ووضع طابع البريد ... وأفهمه ألا يغلق الخطاب إلا بعد إحضار الصورة غدا ... وطلب منه الزاوي أن يكتب على الظرف سلاما وتحية " شكرا لساعي البريد ".

(9)

دخل أبو طه المطعم يزمجر ويزبد ... لقد بحث عن الزاوي في كل مكان، فقد أخبره سائق من موقف الأتوبيسات انه عثر على خيط يدلهم على " طه وفرج " الاثنين معا ... في السليمانية وأن سعيد النظيف أعطاه مبلغا له ولعلي الزاوي خمسمائة دينار مناصفة وعليهم التوجه إلى السليمانية باكر على الأكثر ... وسلمه في يده أمام الناس مائتين وخمسين دينار.

السليمانية في الشمال وبعقوبة أيضا في الشمال ... الخطة تحتاج بعض التغيير ... لماذا لا يسافران إلى بعقوبة ومنها إلى الخالصة ثم يتجهان شمالا إلى السليمانية ... أبو طه ليس له في الخطط ... ترك الأمر للزاوي وعاد إلى المنزل ... جمعا بعض ملابسهما في حقيبة واحدة على أن يحملاها بالتناوب ... ومن المربعة إلى علاوى الحلة ومنها بالأتوبيس إلى بعقوبة ... استغرق الجزء الأول من الرحلة اقل من ساعتين ومن بعقوبة إلى " الخالصة " ... وميكروباصات صغيرة ... يعمل عليها مصريون ... مثل أرياف مصر. الخالصة ... آخر عنوان لـ " فرج " في العراق.

ضوضاء مصر في الميكروباص. كاسيت عال الصوت وسائق متطوع للقيام بدور المرشد السياحي ... " الخالصة " كفر مصري مائة في المائة أقامها عبد السلام عارف ... كان رئيسا للعراق ... كان يرغب في إقامة وحدة مع مصر ... أقام القرية كلها مثل قرى الفلاحين في بحري وأرسل له عبد الناصر الرئيس مائتي أسرة مصرية

بأطفالهم ... كل أسرة استلمت دارا وجاموسة وأنشأوا جمعية زراعية ... وزعت البذور والسماد والتقاوي على الفلاحين ... وكبر أولادهم هنا في المدارس وتعلموا وتوظفوا وتزوجوا ... هنا تجد عراقيا خاله ... مصري ... وتجد مصريا أمه عراقية وأصبح في العراق أربعة ملايين مصري. لم يتوقف السائق عن الكلام إلا بعد أن أوقف محرك سيارته في مدخل القرية ... وهبط الزاوي وأبو طه.

على " الزراعية " مقهى مصري ... مقاعد من الخشب والخوص ... الجو أهدأ بعض الشيء من بغداد، به نسمة هواء ... طلبا الشاي وجاء بالطلب مصري بجلباب وطاقية ... دخلا في الموضوع مباشرة، فهم في طريقهم إلى السليمانية للبحث عن ابنيهما ... فرج على محمد يوسف وطه الشلقاني ... الجرسون لم يسمع عن الاسم الثاني إلا أن الأول ... عمل هنا وتزوج من هنا ... ونادى على عراقي ليؤكد كلامه ...

فرج يوسف تزوج من بيت منور هاشم ... اخذ ابنته البكرية " عامرة " ثم عمل معهم بالتجارة، كانوا يشترون الفاكهة والخضر من الفلاحين المصريين ولديهم سيارات نصف نقل ... توزع في الأسواق في المدن القريبة والبعيدة ... انتقل أهل منور هاشم كلهم إلى السليمانية ... وذهب معهم فرج يوسف ... كان من حين لآخر ينزل " الخالصة " عندما يكون في طريقه إلى بغداد ... قدم فلاحون مصريون ... ألقوا التحية وجلسوا ... عرفهم عامل المقهى بالزاوي ... قائلا انه أبو فرج يوسف، رحب به الجميع وأثنوا على الولد وتربيته وأضافوا أن زوجته " عامرة

" كانت في غاية الأدب والاحترام ... يدها على يد أبيها ... وعندما تزوجت، كانت خير زوجة، إلا أنها أصرت أن تقيم مع فرج في منزل أبيها ولا تتركه ... وغادورا جميعهم القرية إلى السليمانية ... وأجهش أبو طه بالبكاء ... لم يتعرف احد على صورة ابنه التي أخرجها من طيات ملابسه ليعرضها على الناس!.

ربما نعثر عليهما في السليمانية، ربت الزاوي على كتفه فقد اعتاد أبو طه على هذه اللمسة السحرية لإيقاف بكائه ... المسافة بعيدة من " الخالصة " إلى السليمانية ... لابد من المبيت في بعقوبة ثم الخروج مع أول ضوء هناك ... الطريق لا يسير على وتيرة واحدة ... جزء صحراء ... أجزاء من الخضرة الجميلة ... جبال ليست مكفهرة مثل جبال الصعيد ... تغطيها الخضرة والأشجار ... من بعقوبة إلى " سامراء " ومنها إلى كركوك ... أغلب الرجال هناك يرتدون السروال الواسع الفضفاض الذي رآه الزاوي أول مرة في علاوي الحلة ... أنها مناطق الأكراد ... من كركوك اتجه الأتوبيس شرقا إلى السليمانية ... مدينة تبدو كبيرة ... واسعة مثل بغداد.

في موقف الأتوبيس ... قابلوا مصريين، المصريون نبتوا في كل مدن ومحافظات العراق، سألوهم عن طه الشلقاني وفرج يوسف، أشار أحدهم إلى محل قريب، موضحا أن أغلب المصريين كانت تصلهم الخطابات على هذا المحل ... وكان يوزعهم عليهم عندما يأتون من القرى المجاورة مساء كل خميس ... البحث لم يعد عن اثنين ... بل عن ثلاثة فرج وطه ومنور هاشم والأخير إذا تم العثور

عليه قد يساعدهم في الوصول إلى الاثنين! إلا أن الوقت متأخر والمحل مغلق ... عليهم البحث عن فندق يبيتون فيه ليلتهم والصباح " رباح وبراح!

" نجمة الشمال " فندق أو " خان " بسيط المدخل به ثلاث كنبات خشبية وعامل الاستقبال مصري يساعد صاحب الفندق العراقي ... حجزا حجرة ... المدة لا يعرفانها ... سيدفعان اجر يوم بيوم فقد تنتهي مهمتهما سريعا أو يظلا طويلا ... الله أعلم ... الليلة بخمسة دنانير ... وإذا ظلا لمدة أسبوع تصير بأربعة دنانير وإذا حجز شهر كاملا تنخفض الأجرة إلى تسعين دينارا في الشهر. دفعا عشرة دنانير تحت الحساب وسألا العامل إذا كان يعرف مصريين جاءوا إلى هنا ... أحدهم اسمه فرج على يوسف والثاني طه الشلقاني، لم يستدل على الأول، مؤكد أن الثاني كان يأتي كثيرا لهذا الفندق ويعمل في تجارة الدخان ويورد المعسل إلى الحاج مصطفى معروف صاحب المحل المغلق أمام الفندق، كما أن طه الشلقاني كان يعمل معه سائق من بغداد يقيم بالفندق منذ فترة بعدما طلبت منه الشرطة عدم مغادرة السليمانية واحتجزوا سيارته " الونيت " نصف النقل داخل مركز الشرطة منذ مدة طويلة ... السائق يدعي فالح الخياط ويعمل مؤقتا على سيارات الغير ... إلا انه لا يدخل الفندق قبل منتصف الليل.

أطلق الزاوي صيحته ... يا دليل التائه ... يا عدوي، وسأل ماذا عن " فرج " إلا أن عامل الاستقبال أكد له انه لم يسمع عن هذا الاسم من قبل، لم يغادرا بهو الخان ...

الجو مختلف عن بغداد ... نسمات هواء بارد تهب من المدخل ... ودخل عراقي ضخم الجثة له لحية وشارب ويرتدي سروالا فضفاضا قدمه لهما عامل الاستقبال ... هذا هو فالح الخياط. قاما لاستقباله إلا انه تراجع خطوتين وتسمر مكانه قبل أن يعرف الموضوع!

هذا أبو طه الشلقاني جاء ليبحث عن ولده ومعه صديق ... وأخبرته انك كنت تعمل معه، قدم عامل الاستقبال الزاوي وصديقه إلى فالح الخياط وانصرف إلى حجرة مجاورة ... امتد الحديث، قال العراقي كل ما أخفاه المصريون عن حادث اختفاء طه الشلقاني وأكد لهما ... انه محجوز هنا في مركز شرطة السليمانية الرئيسي رهن التحقيق في قضية تهريب وأنه تم اختطافه بالفعل من بغداد عن طريق رجال مصطفى معروف تاجر الدخان وجاءوا به إلى السليمانية وألقت الشرطة القبض عليه بعدما قبضت على فالح الخياط بسيارته المحملة بالدخان والمعسل ... والذي اعترف أنها تخص طه الشلقاني وانه يعمل معه ... أفرج عن الخياط وما زال طه في الحجز ومن الممكن تقديم طلب للمأمور صباحا من اجل السماح لأبيه بزيارته في محبسه على ألا يخبرا أحدا بما قاله لهما، فهو لم يعرفهما ولم يقابلهما ولم يشاهدهما. انفرجت أسارير أبو طه إلا انه لم " ينم " ليلته!

قبل الفجر وقفا أمام مخفر الشرطة ... قبل أن يستيقظ مؤذنو المساجد ... دخلا مسجدا مجاورا صليا ركعتين تحية ... وركعتي شكر، وأذن للفجر وجاء المصلون ... أول مرة منذ ما يزيد على ثلاثين عامًا يدخل فيها الزاوي مسجدا

رغم مواظبته على الصلاة في منزله، فقد كان يتجنب دخول المساجد في مصر خشية أن يقابله أو يتعرف عليه شخص من أسيوط ... عبرا الطريق ... مركز الشرطة أمام المسجد مباشرة ... قابلهما عسكري عراقي ... شرحا الموقف وكتب لهما طلبا لتقديمه للمأمور بأسميهما لمقابلة المحجوز طه الشلقاني ... وافق المأمور لأبو طه برؤية ابنه ورفض السماح بدخول الزاوي لأنه ليس ذا صفة!

انتظر الزاوي في الخارج ما يزيد عن أربع أو خمس ساعات ... لا يعلم ماذا يدور داخل المخفر ... وماذا يفعل أبو طه ... خشى أن يتحرك من أمام المركز فيخرج أبو طه ولا يجده ... جلس على الرصيف المقابل وعيناه معلقتان على باب المخفر... ظهر أبو طه ... رجل مختلف ... أكتافه مرفوعة بعض الشيء ووجه " ضربت " فيه " الدموية " لقد قابل ابنه أخيرا ... حيا يرزق، الحديث سيحتاج شرحا طويلا ... وهو لن يغادر السليمانية إلا وطه معه ... طلب من الزاوي أن يعود سريعا إلى بغداد ويخبر سعيد النظيف بالعثور على طه في حجز مركز شرطة السليمانية وانه رهن التحقيق في قضية تهريب كبرى وأن يتصل الحاج سعيد النظيف بمعارفه من العراقيين في بغداد وكبار المسئولين للمساعدة في الإفراج عن طه وطلب من الزاوي أن يحمل معه رقم تليفون فندق " نجمة الشمال " ويعطيها للحاج سعيد وأوصاه بأن يدفع إيجار الحجرة كاملا لصاحب المنزل وليس مناصفة ... عليه أن يدفع ثلاثين دينارا وحده منذ بداية الشهر ... فهو لن يترك السليمانية أبدا خشية أن ينقلوا ولده إلى مدينة أخرى.

من السليمانية إلى بغداد ... لم يغادر الزاوي مقعده في الأتوبيس أغمض عينيه طوال المسافة وقبل أن يذهب لسكنه، عرج على الحاج سعيد النظيف الذي حذره جبرائيل عبد الجبار من مقابلته ... شخص أبيض " محمر " شعره " مصبوغ " أسود لامع ... شاربه ليس به شعرة واحدة بيضاء ... وجهه يلمع ... ويلمع في أصابعه عدد من الخواتم الذهبية الكبيرة ... أخبره بكل ما أوصاه به أبو طه وأعطاه رقم تليفون فندق " نجمة الشمال " في السليمانية وطلب منه الاتصال ليلا بأبو طه وقبل الانصراف من المحل ... أخبره النظيف بأن شخصا سأل عليه أكثر من مرة ... وترك له ورقة بضرورة مقابلة جبرائيل ... وسأله عن جبرائيل هذا؟ كذب عليه بأنه عراقي من " علاوى الحلة " قد وعده بتوفير فرصة عمل ... وانصرف!

الحجرة كئيبة بدون أبو طه ... نام ليلته على سريره ... وتغطي رغم حرارة الجو ... وفتح النافذة على مصراعيها وأدار المروحة ... الفرج آت ... لقد تم العثور على طه ... والعثور على " فرج " بإذن الله ليس مستحيلا إلا أنه كان يأمل العثور على " فرج " قبل طه ... شغله الشاغل تمركز حول جبرائيل ... وأيهما ... جبرائيل الوزيرية أم جبرائيل الأعظمية ... في الصباح ... دخل مع الضوء مكتب جبرائيل الوزيرية ... رحب به وأخبره بالعثور على عمل له ... سيعمل " جناييني " في فندق اسمه " منصور ميليا " على الضفة الأخرى من النهر ... ليس بعيدا عن المربعة ... كل ما يحتاجه أن يعبر جسر الأحرار، الوظيفة حكومية ... والمرتب جيد ساعات العمل ثمانية ... ومن الممكن أن

يتناول وجبة غذاء مجانية في الفندق ... وأجازة كل سنتين وتذكرة سفر إلى مصر ... والمهم ... توقف جبرائيل عند كلمة المهم ... وضغط على الجرس ليدخل الفراش ... أعطاه ورقة عليها اسم الزاوي وطلب منه أن يذهب به إلى المستشفى المجاور للفحص الطبي وإحضار النتيجة فورا ... فالكشف الطبي أهم مسوغات التعيين.

ذهب الزاوي وعاد بصحبة الفراش أو الحارس لا يعلم وظيفته على الإطلاق ... لم يتحدث معه طوال الطريق إلا انه في المستشفى تخطى كل الطوابير ... سحب الزاوي من يده من قسم لآخر ... أشعة الصدر ... الرمد ... الباطنة ... وعاد بمظروف كبير وضعه أمام جبرائيل ... وضع الزاوي نفسه على الكرسي المواجه للمكتب ... المهم ... عاد جبرائيل إلى آخر كلمة توقف عنها ... " هذه الوظيفة رشحك لها جبرائيل الأعظمية " ويطلب منك التعاون معنا ... هناك عمليات تهريب كبرى ... تهريب بضائع وأموال، وعليك أن تخبرنا بكل ما تتوصل إليه من معلومات لقد أصبح لديك علاقات ومعارف وجلسات!

دارت الدنيا بالزاوي ... المطلوب منه أن يعمل مرشدا للمباحث ... وعلى من؟ على المصريين الذين يعيش بينهم ... نعم ... المحتاج يركب الصعب ولكن هذا ليس مجرد صعب ولكنه أذى، الوشاية هنا تؤدي إلى التهلكة، فالشرطة فيما يبدو لا تتحقق من شيء. جبرائيل الوزيرية صورة طبق الأصل – في طريقة تعامله – من جبرائيل الأعظمية ... قرأ مخ الزاوي وأضاف إليه أن الأمر ليس بمثل ما تفكر فيه ... نحن لا نطلب منك التجسس على

المصريين ... ولكـن هنـاك خونـة وعمـلاء يـدمرون البلـد ... يهربـون البضـائع والسـلع المدعومـة إلـى خـارج العـراق ويحضرون بضائع داخل البلاد غير خالصة الرسوم الجمركيـة ... عليك فقط أن تخبرنا عن البضائع وعن أسـاليب تهريبهـا ولن نسألك عن أسماء هؤلاء الخونة أو العمـلاء ... واختـتم حديثـه أن هنـاك شخصـا آخـر سيصـبح مسـئولا عنـه فـي فندق " منصور ميليا " بعد تسلم العمـل وعليـه الاسـتعداد للذهاب إلـى الفنـدق قبـل السـاعة السادسـة مـن صـباح الغد.

الفندق فخم ... الحديقة التي أمامه كبيـرة ... كبيـرة ... بهو الفندق أرضيته رخام لامع ... والناس الداخلة والخارجة من الفندق غير ناس " المربعة " ولا يمتـون بصـلة لنـاس " علاوى الحلة " ... في المدخل تمثال من الحجـر ... نصـف تمثـال الرجـل علـى رأسـه " تلفيحـة " وعيونـه جامـدة ... ورغم انه يعرف انه تمثال إلا أن نظرات عيونه أصابت الزاوي بشـقعريرة سـرت فـي جميـع أنحـاء جسـده. اسـم مكتـوب تحت التمثال ... " المنصور " ربما يكون صاحب الفندق!

سأل عن الشخص المطلوب ... دلوه عليـه ... رحـب بـه وسلمه معدات العمل ... مقص كبير وخرطوم ملفـوف مثـل الثعبان ... وماكينة ... أخبره كيف يشغلها لقص النجيل ... ألقى على مسامعه تعليمات العمل ... تبدأ بـري الحديقـة الرئيسـية فـي الصـباح ... تقـص زوائـد الشـجر ثـم تـروي الحديقة الخلفية قبـل الغـروب وتنصـرف ... مـن السادسـة صباحا حتى قبل الغروب أكثر من ثمـان سـاعات ... المهـم

حصل في نهاية العمر على أول وظيفة " ميري " في حياته.

دخل المربعة بين المغرب والعشاء ... اشترى سجائره الخمسة من " أم غائب " وقبل أن تمد يدها بالسجائر " شخطت فيه " ... وسألته أين كان طوال اليوم ... فهي لم تره صباحا وهو خارج من منزله ... نظر إليها مليا ... العيون في العيون ... ليست بيضاء ولكنها ليست بالسمراء ... تحت ذقنها " دقة " خضراء اللون مثل " دقة " أمه تماما ... خطان مستقيمان حتى نهاية الذقن، بينهما نقطة خضراء كبيرة واضحة رفع عينيه بصعوبة بعيدا عن عيونها ... أخبرها انه عثر على عمل ويخرج من المنزل في السادسة صباحا وسيعود في مثل هذا الوقت من كل يوم ... أخبرته أنها ستبدأ عملها مبكرا لمشاهدته قبل الذهاب إلى عمله ... امرأة جريئة ... تختلف عن زوجته صابرة ... قوية عنها ... أضخم منها ... امرأة بها رجولة ... أقرب إلى أمه في الشبه وطريقة الحديث ... أخذ السجائر وصعد إلى حجرته.

(10)

الليل كئيب ... والحجرة أكثر كآبة بدون أبو طه، وصوت المروحة في السقف يتناغم مع دقات صدره، والفكر يسيطر عليه ... ماذا تريد " أم غائب " لقد كانت فيما يبدو تراقبه ... مثلما كان ينظر إليها من " تحت لتحت " إلا أنها أكثر جرأة منه ... وأكثر وضوحا ... نعم انه في أشد الحاجة إلى امرأة ... امرأة تكسر صمت الليالي وتشع بعض الود في الحجرة الجامدة، إلا انه جاء إلى هنا ليس من أجل الوظيفة ... أو الزواج ... انه جاء للبحث عن " فرج " ابنه ... وإذا عثر عليه ... سيعود به فورا إلى مصر ... ومنها إلى الصعيد ... حيث أمه ما زالت تنتظره ... وأقعدها تقدم العمر عن زيارته في مصر ... الزواج قد يشغله عن البحث عن " فرج " وكيف يقدم على زواج وهو في هذا العمر المتأخر ... خاصة انه يستشعر قرب نهايته ... سيطلع من القاهرة إلى الصعيد يقدم كفنه لأهل القتيل ويسحب أولاده جميعا إلى مسقط رأسه حيث يسلمهم الأرض التي ورثها عن أبيه والتي يديرها الآن أبناء عمومته ... شلالات من الأحلام والهواجس ... بعضها يشعر بحلاوته على طرف لسانه والبعض الآخر يزيد فمه وأيامه مرارة!

إذا فكر في الزواج عليه استئذان " صابرة " دون غيرها ... صابرة وحدها ... لن يستأذن أبناءه فكل منهم له زوجة وأبناء ... " صابرة " قد لا تمانع وقد ترفض إلا أنها بعيدة وأم الغائب أمامه ... لم ينم ليلته ... نزل مرة أخرى إلى الشارع ... تحدث في التليفون للقاهرة ... رد عليه الحاج

ياقوت ... طلب منه إحضار أم العيال ... تحدث معها طويلا ... دفع ستة دنانير ثمن المكالمة وعاد سريعا لحجرته ... في الصباح نزل كعادته ... يومه الثاني في العمل. محلات الحارة كلها مغلقة ... باستثناء مقهى واحد في نهايتها ... " أم غائب " حضرت مبكرا وفرشت سجائرها على منضدة منخفضة وجلست على كرسيها المقابل ... قامت بسرعة وألقت بيدها في يده لتحيته، وهي لا تفعل ذلك أبدا ... أخبرته أنها جاءت مبكرة من أجله ... جرأة لم يتعودها ... إلا انه أحبها! لا يعلم إذا كان أحب " أم غائب " أو أحب جرائتها ولكن ... كلاهما واحد.

العمل يسير على وتير واحدة ... يسقي الزرع ويقص الزوائد ... انقطع عن الشارع ... وعرج إلى " علاوى الحلة " ليقضي بعض الوقت مع صديقه الحاج إبراهيم الحلي ... فرح عندما أخبره بالعثور على طه في السليمانية ودعا له بالعثور على ابنه " فرج " وزاد فرحه عندما أخبره بالوظيفة الجديدة ودعا له بالتوفيق ... مؤكدا أن الفرج سببه الآية التي حفظها الزاوي وأخذ يرددها أغلب وقته " لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين " حكي له عن رغبته في الاقتران بامرأة، إلا انه لا يعرف عنها شيئا أكثر من اسمها " أم غائب " التي تبيع السجائر في المربعة وسأله من غاب لها، الحاج إبراهيم الحلي يعرفها ... فهي تأتي إليه مرة كل شهر لشراء احتياجاتها ... وأن من لا ترزق بأطفال في العراق يطلقون عليها " أم غائب " إلى أن يأتي الطفل، إلا انه لم يأت، فهي امرأة مات عنها زوجها وترك لها منزلا ترفض تأجيره للمصريين أو غيرهم ... وأنها

تتقاضى معاشا حكوميا، إلا أنها نزلت السوق لتؤنس وشحتها وتقضي وقتها ... وأنها أصلا من البصرة جاءت إلى بغداد عروسا شابة منذ أكثر من عشرين عاما، وتتمتع بحب واحترام كل ناس المربعة.

أخذ الزاوي جلسته مع الحاج إبراهيم الحلى ... وانصرف تسلل إلى الحارة ... لمحته " أم غائب " نادت عليه أعطته سجائره الخمسة وسألته عن سبب التأخير، قابل " عرفان " المصوراتي ... طلب منه أن يستضيفه في حجرته ليكتب له خطابا طويلا ... لا يخبر أحدا بتفاصيله ... وافق عرفان واقسم له أن أسرار المصريين كلها معه ... ولا يتحدث بها أبدا وأنه تحت الأمر ... وتحت الخدمة ... " علق " الزاوي على الشاي وأجلس عرفان على كرسي " أبو طه " ... الكرسي الوحيد في الحجرة وجلس هو على " طرف " السرير. طلب منه أن يكتب كل كلمة يمليها عليه، لأن ما يرغب في إرساله إلى مصر يريده واضحا ويريد ردودا عليه أكثر وضوحا!

بعد السلام والتحية والذي منه ... بدأ " عرفان " في الكتابة ... ما زلت أبحث عن فرج والحياة هنا صعبة، لا أعرف النوم ... أو النهار من الليل ... عثرت على وظيفة " مش وحشه " ... مش عارف آكل لقمة كويسة ولا ألبس هدمه نظيفة ... كنت أتمنى أن تكوني معايا لكن ما باليد حيلة ... كلام كثير يكتبه " عرفان " إلا انه بحسه المهني يدرك أن القادم ... أهم ... توقف الزاوي برهة وأعاد التملية ... كنت أفكر في الزواج هنا ... أمامي " ست " ليست صغيرة في السن إلا أنها قد تساعدني في البحث عن "

فـرج " وتخفيـف بعـض الهـم ... سـأتصـل بـك تليفونيـا عنـد الحـاج يـاقوت بعـدما يصـلك الخطـاب ... لا تخبـري الأبنـاء بشـيء ... ولا تقولي شيئا لزوجة ياقوت فهي امرأة مكيـرة قد تبلغ نساء الحارة جميعهن بأن الزاوي تزوج على زوجتـه في العراق وتركها في مصر ... عندما اتصل بك ... قول لي كلمـة واحـدة آه ... أو ... لا ... ومـا تقولينـه سيسـير ... والسلام ختام ... أبوكم علي الزواي. وضع عرفان الخطـاب في مظروف ووضع عليه الطابع ورفـض بشـدة تنـاول أجـره، قائلا للزاوي ... الحساب يجمع ... في فرحك سـألتقط لـك صورا وتدفع اجر الخطاب والصور!

" انزاح " جزء من الغم الذي ربض على صدر الـزاوي بعـد كتابة " عرفان " لهذا الخطاب، فهـو يعلـم أن " صـابرة " لـن تمانع كما أنها لن توافق بسـهولة ... وعليه أن يتركهـا عـدة أيام قبل الاتصال بالقاهرة ... كما انه لن يفاتح " أم غائب " على الإطلاق بفكرة الزواج ما لم تصله من " صابرة " إجابة قاطعـة ... فكـرة الـزواج بـدأت تسـير جنبـا إلـى جنـب مـع البحث عن " فرج " طالت ... وقفاته مع " أم غائب " خاصة بعـد عودتـه مـن العمـل ... أخبرهـا عـن قصـة ابنـه فـرج واكتشف أنها تعلمها ... فقد سمعت من شباب الحي مـن المصريين ... قال لها إن البعض ذكر ذهابه إلـى البصـرة ... وهي منها ... وسألها عن إمكانية مساعدته وسؤال الأهل والمعارف المقيمين هناك والذين يترددون عليهـا مـن وقـت لآخر ... الحديث معها أصبح أكثر عمقا ... فهي ترغب فـي فعل أي شـيء يرفع بعض الخـوف مـن فـوق قسـمات وجـه الزاوي بعدما تفحصت ملامحه وتفحص هو قسمات وجهها

... قد تكون " صابرة " أجمل إلا أن أم غائب أقوى ... تقاطيع وجهها ليست بصغر " تقاطيع " " صابرة " ... إلا أنها تبدو أكثر " حنية " وجمالها في حزنها ... ودخل الزاوي طور العشق!

اعتاد على الفندق ... ولم يعد يتخوف من التمثال الحجري إلا انه أيقن بعد فترة انه من أقارب جبرائيل ... يرصد الداخلين إلى الفندق والخارجين منه ... خواجات ... ومصريين ... أغلبهم بهوات ... ينزلون في الفندق لعدة أيام ... يذهبون ويأتي غيرهم ... كيف يأتي هؤلاء " البهوات " من مصر ولا يسألون عن الأبناء المختفين أو القتلى ... علم بطريقته أن بعضهم صحفيين إلا انه " محظور " التحدث معهم ... كانت تلك أول تعليمات رئيسه المباشر في العمل ... حذره من الحديث مع نزلاء الفندق ... أو التقرب منهم كما حذره من التعامل مع بقية المصريين العاملين في الفندق ... إلا فيما يتطلب العمل ...

العمالة المصرية في الفندق كثيرة ... إلا أنهم لا يتحدثون مع بعضهم البعض ... يتحركون وكأنهم غرباء لا يلتفتون لبعضهم البعض وربما يكون السبب تعليمات مثل التي أعطيت للزاوي ... أو أن أكل العيش في هذه البلد يتطلب الصمت المطبق.

طوال النهار لا يجد من يحدثه ... رئيسه المباشر يسأله أسئلة غريبة عن المصريين في المربعة ... ويبدو انه يعرفهم جميعا ... أسئلة عديدة حول سعيد النظيف قريب أبو طه وإذا كان يتاجر في غير الأقمشة والمنسوجات بجانب ورشة الخياطة التي يملكها ... أجابه الزاوي بكل ما

يعرفه، إلا انه طلب منه أن يعرف المزيد ... فكل ما قاله يعرفه جبرائيل وعليه التوصل إلى معلومات جديدة حول النظيف ... الشغل بدأ وقد تسلم العربون مقدما ... مائة وخمسين دينارا ... ووظيفة ثابتة ... لم يعد يجد حرجا في الحديث عن المصريين وأساليبهم ... إلى الآن لم يذكر أسماء ... إلا أن القادم أصعب!

ضاقت الدنيا حول الزاوي وبه ... الفندق ورئيسه في العمل ... والحاج إبراهيم الحلي وقصصه وحكاويه والتي يصر أنها كلها مكتوبة في الكتب ... وأم غائب وتبادل النظرات المحملة بكثير من المعاني وقليل من الكلمات ... رئيسه في العمل يحجزه في المكتب أطول فترة ممكنة بعد أن يوقع في دفتر الحضور وانصراف العمال يسأله ... يستجوبه ... والزاوي يقول ... كل ما يعره أو يسمعه ... المصريون يتفننون في تهريب الدولارات، آخر ما سمعه أن أحدهم اشترى " شبشب " بلاستيك أو كاوتش ... شقه بالطول ... ووضع في كل فردة ... ثلاث ورقات ... كل ورقة بمائة دولار ثم لصق أطراف الشبشب ولبسه في قدميه وخرج به من المطار بعد أن فتشوا حقيبته ... وكل ما يحمل ... حتى علب الشاي ... فرغوها ... إلا انه " نفد " بالدولارات ... رئيس العمل لا يهمه اسم الشخص ... يكترث بالأسلوب والطرق الجديدة ولا يجد الزاوي غضاضة في أن يخبره بكل ما تلتقطه أذناه أو كان يسمعه من حواديت أبو طه، لقد ترك له أبو طه مخزونا هائلا من القصص حول المصريين ... وها هو يقدمها مرغما لرئيسه في العمل ... على أمل أن يسمع كلمة طيبة أو تحية

يرسلها له جبرائيل ... بعد جلسة كل صباح يخرج إلى الحديقة الأمامية بخرطومه ومقصه ... يروي الزرع ... ويقص الزوائد في صمت ... وبعد العصر ينتقل إلى الحديقة الخلفية ... حفظ أحوضا الزهور ... وعدد الزهور في كل حوض ... لم يهتم بمعرفة أنواع الزهور.

في المساء يحكي له الحاج إبراهيم الحلي عن المشايخ وأولياء الله الصالحين ... الذين خرجوا من العراق واتجهوا إلى جميع الأقطار العربية وأقاموا فيها. ودفنوا هناك وأصبحت لهم مزارات ... وكل شيء مكتوب في الكتب ... كانت أرض الله واسعة ولم يخترعوا الجوازات ولم تكن هناك حدود بين الدول ولم يكن فيها مطارات، من يكتشف أن رزقه يضيق ... يعلم أن رزقه أوسع في مكان آخر، فيشد الرحال ... يعتز الحاج إبراهيم الحلي أن أغلب أقاربه تجار ومشايخ وعلماء، بعضهم تعلم في الأزهر بمصر ثم عاد، والبعض الآخر تزوج هناك وأقام ... ويسأل الزاوي إذا كان قابل أحدا في مصر يحمل لقب " بغدادي " كان أحدهم مسئولا كبيرا في حكم عبد الناصر ... هذا أصله من بغداد!

وبعد أن يعبر الجسر ويدخل المربعة ... تقابله " أم غائب " لم تعد تخشى أحدا ... تحضر مقعدا من مقهى مجاور لتجلسه بجانبها ... عرف أن اسمها الحقيقي " زينب " آنس إليها ... وآنست إليه ... الحديث يدور عن المصريين الذين قدموا إلى العراق ... والمشاكل التي أحدثها البعض ... وتحكي له عن قصص القتل والخطف ... بالأسماء والعناوين ... عندما أخبرها بما سمعه وأن السبب " المشي البطال " أو النصب والاحتيال وموضوع النسوان

والزواج وأن هناك من تزوج من عراقية بعد إعلان موت زوجها في الجبهة وإذا به يعود فيجدها في أحضان مصري فلا يجد مفرا من قتله، " حواديت " كان يحكيها له أبو طه ... تكذب أم غائب ذلك كله ... مؤكدة أن المصريين ... أغلبهم فيهم طيبة ... ويخافون من الحرام خاصة في موضوع النسوان ... قد يكون نصابا أو محتالا أو هاربا من بلده إلا انه يتردد كثيرا في هذه النقطة.

جرأة غريبة ... تحكي بها أم غائب، جعلت الزاوي لا يستطيع الصعود إلى حجرته إلا بعد سماع أجزاء من قصتها الشيقة ... واعتاد سكان الحارة والمارة فيها أن يروا الزاوي بجوار " أم غائب " ... وحتى إذا مر أمامها المصري الذي يداعبها قائلا " هنبقى قرايب! " ترفع يديها من السماء وكأنها تطلب من الله قبول رغبتها ... إلا أن الزاوي لن يفاتحها في موضوع الزواج إلا بعد أن تأتيه موافقة واضحة وصريحة من " صابرة ". عرفت أن الزاوي له زوجه ... وأربعة أبناء ... منهم " فرج " التائه في العراق ... وأن زوجته اسمها " صابرة " وأنها قريبه ... بنت خاله .... واعتاد مخاطبته بـ " أبو فرج " نسبة إلى ابنه الغائب.

المشكلة ليست في موافقة " صابرة "، فهي لن تمانع ... وتعرف انه لن يفرط فيها أبدا حتى لو تزوج ملكة العراق ... المشكلة في السر الذي يحمله بين جوانحه طوال السنوات الماضية ... والذي يجب أن يسر به لأم غائب قبل أن يتقدم لها رسميا ويحدثها على المكشوف في موضوع الزواج ... وهذا السر وحده ليس بمعضلة، فهناك ما هو أشد ... عزمه على مغادرة العراق بمجرد عثوره على ابنه

فـرج وبقيـة الرحلـة ... عزمـه علـى الـذهاب إلـى الصـعيد لتقديم كفنه لأهل القتيـل والإقامـة إلـى الأبـد فـي قريتـه، العقبات لا ينفع معها " العدوي " أو عائلته كلها ... لقد تـاه هو شخصيا ولم يعد ابنه هو التائه الوحيد في العراق!

بمرور الأيام يزداد شـوقه إلـى " أبـو طـه " ويسـأل الحـاج سعيد النظيف من وقت لآخر إذا كان يتصـل بـه تليفونيـا ... وآخـر أخبـار " طـه " ويحكـي النظيـف بفخـر عـن علاقاتـه الواسعة واتصالاته ... وأن هناك من يقوم على راحة " الواد " داخل حجز مركز شـرطة السـليمانية الرئيسـي، وأن هناك من يقدم له وجبات يوميا من خارج المركـز ... كمـا أن أمـور أبو طه استقرت وحالته النفسية أصبحت " عـال " وأنـه مـا زال يقيم في فندق " نجمة الشمال " ... ويزور طـه بصـفة دورية ... مصرا على ألا يترك المدينة إلا وابنه معـه ... وقـد وعـده احـد كبـار المسـئولين العـراقيين خيـرا ... الـزاوي لا يرغب في غلق الباب الموارب مع الحاج سـعيد رغـم عـدم ارتياحه له منذ مشاهدته للمرة الأولى فهو قد يحتاجه في موضوع " فرج " وقد يكون ولده متورطـا فـي قضـية شـبيهة بقضية طه ... ومعرفة الناس كما يعتقد الزاوي كنوز!

تباعدت فترات اتصاله تليفونيا بالقاهرة عملا بنصيحة أبـو طه لتقليل النفقات من ناحية ومـن ناحيـة أخـرى فقـد قـال كل شـيء ... الأمـور لـم يطـرأ عليهـا جديـد سـوى انتظـاره لموافقة " صابرة " إلا أنه قرر ألا يتحدث فـي التليفـون فـي المربعة خشـية أن تسـأله أم غائب عن أمور لا يود الكشـف عنها ... بعـد انتهـاء عملـه ... وذهابـه إلـى الحـاج إبـراهيم الحلي، عقد العزم أن يتصل بـ " صـابرة " ... لقـد مـر علـى

الخطاب الذي أرسله إليها أكثر من أسبوعين شعر الحاج إبراهيم بقلقه هذه المرة ... سأله عن أسباب القلق ... وأكد له انه ربما تشاغل عن ترديد دعاء " لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين " ... اعترف الزاوي بتهاونه في ترديد الدعاء ... ونطقه أمامه ثلاث مرات بصوت عال ودعا له الحاج إبراهيم بالسكينة.

اليوم خميس ... مر أكثر من خميس دون الاتصال بالقاهرة ... وربما تكون " صابرة " في انتظار مكالمته لدى أسرة الحاج ياقوت ... دخل محلا وطلب مكالمة للقاهرة ... حدد المدة ... ثلاث دقائق توفيرا للنفقات ... ردت زوجة الحاج ياقوت وأعطت السماعة إلى صابرة التي كانت تجلس فيما يبدو تنتظره بجوارها ... سمع نحيبها ... طمأنها بأنه سيصل إلى فرج بإذن الله ... علا نحيبها ... تراجع عن سؤالها، نحيبها يكشف أن الخطاب وصلها وأن اتخاذ قرار الموافقة ليس بالسهل ... تحدث في أشياء أخرى ... فجأة قالت له أنها موافقة موافقة ... موافقة على أي شيء تفعله على أن ينتهي بعودتك وعودة فرج ومن تحضره معك وأجهشت بالبكاء مثل أبو طه! أنهى حديثه بجملة " في أمان الله ".

(11)

الموافقة صريحة ... ولابد من استشارة احد ... ومن أين يأتي بمن يستشيره ... ليس هناك سوى الحاج إبراهيم ... أخذ جلسته ولم يفاتحه بكلمة ... ساعد الحاج إبراهيم في غلق محله وسار لا يرى الناس من حوله إلى أن دخل المربعة ... أم غائب تلملم أشياءها ... لقد تأخر الليلة ... أعطته سجائره الخمس ... أصبح تموينه اليومي ... خمس صباحا وخمس مساء وعلقت في يده " عمود " المونيوم ... أربعة أطباق فوق بعضها ... يرى مثل هذا العمود مع العديد من العمال المصريين ... في الغالب به طعام العشاء لم تفتح فمها بكلمة، إلا أن نظراتها إليه كانت أكثر حدة وأشد إيلاما من نظرات جبرائيل. صعد درج السلم وأغلق باب حجرته عليه ووضع العمود على أرضية الغرفة وبكى مثلما كان يبكي أبو طه ... أول مرة في حياته يبكي ... كان يقال عنه إن دمعته عزيزة إلا انه بكى ... بكى لكل سنوات العمر ... الماضي منها والقادم!

الجمعة أجازته الرسمية ... نزل إلى الحارة مبكرا ... تناول إفطاره وانتظر مجيء " أم غائب " ... جاءت ... فرشت فرشتها وكأنها لا تراه ... ألقى تحية الصباح ولم تمد يدها له بالسجائر الخمس ... أحضر كرسيا من المقهى المجاور وجلس عليه بجوارها ... لم تحدثه عن أسباب تأخيره بالأمس ... ولم تحدثه عن الطعام الذي أعدته بنفسها له واستمرت نظراتها إلى اللا شيء ... أخبرها هو عن سبب تأخيره ... وشكر طعامها وأثنى عليه

... إلا أنها كالصخرة لم تهتز ولم ترمش ... قال لها انه تأخر بالأمس لأمر هام يخصها هي ويخصه ... وانه فكر طويلا قبل أن يتخذ قراره بمفاتحتها ... وانه ... وانه ... وانه يطلب الزواج منها ... كانت بحس الأنثى تعلم وبكرامة العربية تدرك ... إلا أنها كانت في انتظار اللحظة ... نظرت تجاهه ... اتسعت حدقة عينيها ... وبجرأة العراقية قالت " وأنا كنت أبغيك وأريدك زوجا " وخفضت رأسها من الفرح ... لا الخجل ... تحدث الزاوي عن نفسه ... صعيدي في الثالثة والخمسين من العمر ... أب لأربعة رجال ... جاء أحدهم إلى العراق، فعشق ناس وتزوج من بناتها ... وتاه ... وها هو الأب يفعل فعلته إلا أن هناك شروطا يجب التحدث فيها قبل الدخول رسميا في الموضوع.

لديه سر ... لا يعلمه احد ... عليها أن تحفظه ... فهو هارب من ثأر في الصعيد وسيعود إلى الصعيد بمجرد العثور على ابنه ... وستعود هي معه ... وإذا وافقت على الزواج ... فلا داعي لبيع السجائر في الشارع ... وستنتقل للإقامة معه في الغرفة التي كان يشغلها مع أبو طه وعليها ترك منزلها أو تؤجره ... وهو في الصعيد يمتلك دارا ولديه أرض ... زوجته صابرة لا تمانع من زواجه فقد فاتحها في الموضوع ... ووافقت وكان يخشى أن يقدم على الزواج دون معرفتها ... نعم له الحق في أن يتزوج إلا أن " العشرة لا تهون إلا على ابن الحرام ".

أم غائب وافقت على الفور على كل شروطه باستثناء شرط مغادرة العراق معه، فلابد من موافقة أهلها في البصرة عليه ... وستسافر في الغد إليهم تزف لهم الخبر

وقد يأتي بعض أفراد أسرتها لحضور عقد القران وهي ليس لها مطالب إلا أنها قد تحمل بعض أثاث منزلها إلى غرفة الزاوي ... وعند العثور على " فرج " فهناك بعض الترتيبات المفروض اتخاذها للسماح لهما بمغادرة العراق ... هي وزوجة فرج، فهناك قرار بمنع مغادرة الزوجة العراقية مع زوجها الأجنبي وأن لها أقارب يستطيعون الحصول لها على إذن بالخروج ... استمر الحديث حتى رفع آذان صلاة الجمعة واستأذن في الانصراف ممسكا بيدها عدة ثوان كأنه يؤكد ما قاله لها شفاهية.

المرة الثانية في العراق التي يدخل فيها مسجدا، كانت الأولى مع أبو طه في المسجد المواجه لمركز شرطة السليمانية ... كانوا في الفجر ... وهذه صلاة الجمعة. المسجد مكدس على آخره ... أغلب المصليين من المصريين بعضهم يعرفه ويسمع صوته في الحارة يسب ويلعن الملة والأديان وقد جاء للصلاة خاشعا ربما يغفر الله له ويتوب مثلما تاب على جاره الحاج ياقوت ... الناس بخواتيمها ويطلب من الله أن يتقبل صلاته ويحسن ختامه ... منذ أن وطأت قدمه القاهرة لم يدخل مسجدا، فقد سمع وهو صغيرا أن واحدا من بلدياته هرب من الثأر إلى الإسكندرية ... وأمام واحد من اكبر مساجدها لقي حتفه طعنا بسكين، صلى وأنهى صلاته وسلم يمينا ويسارا ومد يده إلى من بجواره ... يدعو له بتقبل صلاته فأمسك به ... وسحبه إلى خارج المسجد وقتله، فقد كان أحد مطارديه ... القصة مثل كل قصص الصعيد تحفر لها مكانا في قاع الجمجمة وتظل تتحرك بشخوصها وأطيافهم ... مما جعله

لا يقترب من مسجد ... ولا يسير في جنازة ولا يدخل سرادق عزاء ... يتجنب أي حشود أو تجمعات أو طوابير ... لم يقترب طول حياته حتى لجمعية تعاونية ... خشية أن يراه أحد مطارديه ... استمع للخطبة ... وصلى ... وألقى بالتحية يمينا ويسارا، وقام لصلاة ركعتي السنة وأطال فيهما إلى خف الزحام قليلا. وخطف حذاءه واختفى ... ويبدو أن الحذر عاوده مجددا بعدما تخلى عنه في العراق.

سافرت " أم غائب " لتأتي بموافقة أهلها ووعدته بقراءة الفاتحة في المشهد الحسيني بكربلاء حتى ييسر الله له أموره، كما وعدته بالبحث عن ابنه " فرج " وتكليف رجال عشيرتها بالبحث عن زوجته ... عامرة منور هاشم. وطمأنته خيرا إلا أنها لم تحدد موعدا لعودتها ... تخلى عن سجائر الصباح ... وعاد للجوزة في المساء وأحس بالشوق لـ " أم غائب " وشعر بوطأة الغربة ... أخبرته قبل سفرها ... انه في حالة انتقالها لغرفته قد تؤجر منزلها لمجموعة من الشباب الأردني إلا أنها تخشى منهم ومن مشاكلهم، فهم يستأجرون منزلا مقابلا لمنزلها ... لا يزيد عددهم على ثلاثة إلا أنهم أحيانا يصلون لعشرة أو ما يزيد، لا يعملون عند احد ... ولا ترى لهم تجارة ... يجمعون بعض البضائع من السوق العراقي وخاصة الأجهزة الكهربائية ... ثم يهربونها إلى بلدهم ... معلومة في غاية الأهمية ... يفكر في تقديمها لرئيسه المباشر في العمل لاسترضائه أو إرضاء جبرائيل الكبير.

مر يوم آخر صعب ... بدون رؤية " أم غائب " أو الحصول على سجائرها ... وقع في كشوف العاملين وأخذ خرطومه

ومقصه ... ألقى التحية على رئيسه إلا انه تشاغل عنه وقبل خروجه ... ناداه ... أفهمه أنه يتكاسل في عمله وأن ذلك قد يضره ... فالعقد ينص على فترة تحت التدريب مدتها ثلاثة شهور وقد يفسخ عقده بعدها، ما لم يظهر نشاطا واهتماما بعمله، حاول أن يوضح له التزامه ... وإخلاصه ... وانه يقضي يومه كله في العمل ... رد عليه بأن ري الحديقة وقص الزوائد ... وحضوره في موعده وانصرافه لا يمثل قيمة بالنسبة للفندق أو له ... لقد بدأ في التكاسل في جلب الأخبار والمعلومات، تذكر معلومة " أم غائب " حول الأردنيين ... إلا انه فضل أن ينقلها وبنفسه إلى جبرائيل الكبير في الأعظمية بعد تأكده شخصيا منها حتى لا يورط معه أم غائب وعده بالبحث عن أخاب، وأخبره بعدم تأخره بإبلاغه بما يصل إلى مسامعه.

لم يعرج على الحاج إبراهيم الحلي كما اعتاد، نزل إلى المربعة فورا ... جلس على مقهى مجاور لمنزل أم غائب يرى منه منزل الأردنيين ... بالفعل هناك من يدخل محملا بـ " كراتين " وعربة صغيرة أنزلت بضائع ... فرغوها بسرعة وأدخلوها إلى المنزل ... خلية نحل تعمل ... أنهم أكثر من عشرة كما قالت " أم غائب " ... كلام جبرائيل صحيح ... هناك من يعملون بالتهريب لتخريب اقتصاد البلد، اختمرت الفكرة برأسه ... الخبر سيقدمه بنفسه لجبرائيل ويخبره أيضا انه في طريقه للزواج من امرأة عراقية ولا يعلم كيف " فاته " أن يبلغ جبرائيل بذلك قبل أن يفاتح " أم غائب " في الموضوع، فقد يرفض جبرائيل الفكرة من أساسها، إلا انه طرد فكرة الرفض من رأسه، جبرائيل تهمه الأخبار ...

وزواجه من امرأة عراقية قد يسهل له ولهم مهمتهم ... رتب أفكاره بماذا يبدأ حديثه مع جبرائيل ... مساعدته في البحث عن " فرج " وتوسله إليه بتكليف رجاله في أنحاء العراق لهذا الغرض، أو فكرة زواجه أم موضوع الأردنيين ... الثلاثة بالطبع يدخلون في دائرة اهتمام شئون العرب ... فالمرأة عراقية عربية ... والأردنيون عرب، وفرج التائه عربي أيضا!

لليوم الثاني لم يذهب إلى الحاج إبراهيم الحلي ... اتجه بعد انتهاء عمله مباشرة إلى جبرائيل في الأعظمية ... رحب به وأثنى على المعلومات التي يقدمها لرئيسه المباشر في الفندق إلا انه طلب المزيد واتهمه أيضا بالتكاسل بعض الشيء ... كلامهم واحد ... إلا انه طمأنه وأعرب عن توقعه حصوله على المزيد من المعلومات في الأيام القادمة ... وهنا القى بما يظنه قنبلة. لقد أخبارا حول مجموعة من العرب ... يجمعون الأدوات الكهربائية من الأسواق، ثم يخزنونها في منزل بالمربعة ويهربونها إلى بلدهم ... لم اكتف بالسماع ... ذهبت بنفسي وتأكد من ذلك ... ولم أخبر رئيسي ... فضلت أن أبلغك شخصيا ... انفرجت أسارير وجه جبرائيل المتجمدة ... طلب منه العنوان تحديدا ... ذكر له اسم المقهى المواجهة للمنزل!

هز جبرائيل رأسه وتبسط وخلع الرسميات وتحرك من مقعده ليجس في المقعد المواجه للزاوي ممسكا بيده علبة سجائر كليوباترا، مغلقة، فتحها وقد له سيجارة وأشعلها ... وأخذ يحاضر حول أعداء الشعب الذين يسرقون قوته ويهربون البضائع المدعمة، فالحكومة توفر لمواطنيها

كافة السلع بأسعار اقل من نصف ثمنها الحقيقي، إلا أن المهربين يحاولون الاستفادة من فرق العملة، خاصة بعدما انخفضت قيمة الدينار العراقي ... الأجهزة الكهربائية ... نقطة في بحر من الذي يتم تهريبه عبر الحدود، فهم يهربون قطع غيار السيارات والأدوية وغير ذلك، وتحدث في أشياء عديدة لم يستوعبها عقل الزاوي ... إلا انه تشجع وذكره بوعده في البحث عن ابنه أو على الأقل مساعدته في ذلك، فعاد إلى مكتبه وفتح احد الأدراج وأخرج أوراقا ... مؤكد أنها رسائل وفاكسات إلى فروعه ومكاتبه المختلفة المنتشرة في جميع أنحاء العراق يطلب منهم فيها البحث عن فرج على محمد يوسف وأن بعضهم أرسل ردودا بعدم عثورهم على هذا الشخص وفروع أخرى لم ترد بعد، إلا أن الزاوي فيما يبدو قد مل العراق وكره أهلها ويريد العودة إلى بلده بأسرع ما يمكن!

الحديث " هات وخد " أقسم الزاوي بأنه أحب العراق ومشى فيها بلا خوف على حياته، وانه لولا ولده لظل بها بقية حياته و " الضنى غال " ورغم أزمته تلك، فهو يفكر في الزواج من امرأة عراقية ... أرملة تعيش بالقرب من سكنه ... وسكت برهة ليقرأ وجه جبرائيل ... صاحب الوجه مدرب بما فيه الكفاية ... لا يكشف ما يدور بخلده أو جوانحه ... استمر الزاوي في حديثه، لقد فاتحتها في الموضوع، وسافرت إلى أهلها في البصرة للحصول على إذنهم ... وأنه جاء هنا للمكتب للحصول أيضا على إذن " الباشا " جبرائيل ... وإذا مانع من إتمام الزواج ... فمن

الممكـن أن ينقلــه مــن بغـداد كلهـا إلـى مدينــة أخــرى ويساعده في إيجاد عمل كما وفر له وظيفة الفندق.

أجمل ما في جبرائيـل انـه يجيـد الإنصـات والـتمعن فـي معـاني الكلمـات والحـروف ... ولا ينطـق إلا بعـد مـا ينهـي الطرف الآخر حديثه بالكامل ... الزاوي ينتظر كلمة مـن فـم جبرائيل ... " آه أو لأ " ... لم ينطق بهما جبرائيـل ... وقـف على قدميه، فهبط قلب الزاوي إلى أقدامه ... مد يده يشد علي يد الزاوي ويبارك له فكرة الزواج ويسأله ماذا سـيفعل مع أم الأولاد بالقاهرة ... أخبره انه استأذنها وهي لا تمانع ... ووعـده بهديـة زواج ... قـد تكـون بعـض أنـواع الأجهـزة الكهربائية التي يهربهـا السـفلة الخونـة التـي فتحـت لهـم العـراق أحضـانها، إلا أنهـم لـم يتورعـوا عــن طعنهـا فـي اقتصادها وقلبها، وقف الزاوي واستأذن في الانصراف!

(12)

عادت البسمة إلى الحارة ... وأطل الصباح بنوره ونور " أم غائب " ... لقد عادت ... وافترشت سجائرها ... وبدت أكثر نضارة عما شاهدها الزاوي من قبل ... تحية الصباح لها مذاق خاص هذه المرة، بعد أن أضيفت إليها كلمة جديدة واحدة ... " وافقوا، الله بالخير يا علي ... وافقوا " ... آه ... لو أفراحه تكتمل ويعثر على فرج ويمسكه بيده وأم غائب باليد الأخرى ويعود إلى مصر ... آه لو يتخلص من كابوس جبرائيل ورجاله بعدما تحول إلى عجينة في أصابعهم، يخشى من الضغط عليه " فركه " ... أخذ سجائره وطالبته بالعودة مباشرة من العمل إلى الحارة لمناقشة الترتيبات. في الفندق وقع في كشف الحضور وأخذ خرطومه ومقصه وتشاغل عن رئيسه ولم يلق عليه تحية الصباح، فقد عرف الطريقة ... وكل معلومة سيتوصل إليها سيبلغها مباشرة إلى جبرائيل بدلا من التعامل مع هذا الشخص الكريه الذي يظن نفسه صدام حسين ... أنهى عمله وتوجه إلى " علاوى الحلة " إلى صديقه إبراهيم الحلى، أبلغه بعودة " أم غائب " وموافقة أهلها على الزواج منه وطلب تشريفه يوم عقد القران ليكون شاهدا على العقد، فهو أطيب قلب تعامل معه منذ مجيئه ... يذكره بطيبة أخواله في صدفا وحنوهم عليه ... سأله الحلي ضاحكا إذا كان لأم غائب أخت ليتزوجها هو لتدخل البهجة على قلبه مثلما حدث مع الزاوي، تعمد أن يطيل جلسته مع الحاج إبراهيم وألا يعود سريعا إلى الحارة حتى

لا تتحكم " أم غائب " فيه منذ البداية ولا تأمره أو تنهاه عما يفعل، البداية هي النهاية ... وإذا " ركبت امرأة ... دلدلت رجليها "!

نسيت " أم غائب " أنها طلبت منه أن يأتي مباشرة من العمل إلى الحارة وحكت له ما حدث في غيابه حيث حضرت الشرطة وسيارات أخرى ... وأخذوا جيرانها الأردنيين ... وأخرجوا من منزلهم كراتين وأشياء أخرى ... فقد حولوا المنزل إلى مخزن كبير ... وهو يسمع ولا يعلق ... وتحكي أم غائب وبتظاهر بأنه يسمع عن الأردنيين هؤلاء لأول مرة ... تذكر " فرج " ابنه ... وسألها عن المكان الذي قد يأخذونهم إليه وماذا سيحدث لهم ... أكدت له انه لن يعرف احد مكانهم بعد اليوم، وقد لا تطلع عليهم الشمس مرة أخرى ودخلت في موضوع ترتيبات الزواج ... بعض أهلها سيحضرون الأسبوع القادم من البصرة ... أخ لها وخال وقد يحضر عمها وبعض نسوة العائلة ... وعليه أن يحدد موعدا لعقد القران في المحكمة وستبلغ هي كل الحارة وزبائنها من المصريين بأنها خطبت لعلي الزاوي وسيعقد قرانهما قريبا وأنها ستعتزل بيع الدخان! وكل ما عليه شراء دبلتين والاستعداد للزفاف.

نشط الزاوي وأصبحت هناك أخبار جديدة تصل بصفة يومية إلى جبرائيل وأذيع خبر ارتباطه " بأم غائب " واشترى دبلتين من صائغ ليس ببعيد عن منطقة المربعة ... خرج معها من الحارة جنبا إلى جنب رغم إصراره على سبقها بخطوة أو خطوتين كما يفعل أهل الصعيد ... اخذ كل ما لديها من علب السجائر ... حملها إلى غرفته مع

وعد بدفع ثمنها وطلب منها عدم مغادرة منزلها إلى أن يتم الزفاف، ذهب بنفسه إلى سعيد النظيف ليخبره وطلب منه أن يبلغ أبو طه في التليفون ... وجاءه " عرفان " المصوراتي متطوعا ... ومقسما انه سيلتقط له صور الزفاف ويضعها في " ألبوم " ولن يتقاضى معه فلسا واحد، فهو قد أحبه، إلا انه يخشى من تخليه عن إملاء خطابات جديدة إلى القاهرة.

جاء أهل " أم غائب " من البصرة ... ذهب الزاوي لمقابلتهم في دارها، في الصباح توجه الجميع إلى المحكمة بعدما استأذن من رئيسه بتأخره نصف يوم، الأجانب لابد من عقد قرانهم في المحكمة ... الجالس ليس بقاض ولكنه شيخ " معمم " قدمت " أم غائب " عمها وكيلا لها ... أقر بعدم وجود موانع للزواج، الاسم زينب نوار حاجم ... يسمع الزاوي الاسم كاملا لأول مرة ... سأله القاضي عن اسمه أجاب بعد أن قدم جواز سفره ... سأله عن مهنته، بكل ثقة أجابه ... " مبلط قيشاني " ... تمت المراسم ... خرج الجميع من قاعة المحكمة ... مصريون وعراقيون ... سعيد النظيف أرسل زوجته وبناته ... نساء عراقيات من أهل " أم غائب " ... زغاريد مصرية ... أوقفهم عرفان لالتقاط الصور ... تعمد الزاوي أن يسحب الحاج إبراهيم الحلي من يده ليقف بينه وبين زينب ... المصري الذي كان يداعب أم غائب يلقي بنكاته موجها حديثه إليها ... قلت هنبقى قرايب وبقينا! الكل في الصور ... إلا أبو طه ... وفرج ... أما " صابرة " فمكانها ما زال في

القلـب ... انفـض المولـد ... تركهـا مـع أهلهـا واسـتأذن للذهاب إلى الفندق.

بعـد العـودة عـرج علـى منزلهـا ليأخـذها، لا يعلـم كيـف انشـقت الأرض عن كل هؤلاء الأطفال المصريين ومـن أيـن جـاءوا ... ومـن أيـن أحضـر الشـباب الطبـل والأدوات الموسيقية ... زفة بطول الحارة إلى أن دخل الزاوي غرفته مع زينب وانصرف كـلُ إلـى حـال سـبيله ... لـم يعـد الليـل طويلا كما كـان، ظهـر النهـار مبكـرا عـن المعتـاد ... وتنـاول الزاوي إفطارا لأول مرة في حجرته ... شربه شايه ... وهم بالانصراف طالبته بألا يتأخر، فأهلها في انتظاره بعد المغرب ولديهم أخبار عن ابنه لم تفصح له عنها في ليلة زفافها ... فخالها يعرف مكان أسرة عامرة منور هاشم، وستكون هي الخـيط الواصـل إلـى " فـرج " اهتـز جسـد الـزاوي بشـدة وانقبضـت " مراوحـه " وردد الـدعاء الـذي أوصـاه بـه الحـاج إبراهيم " لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظـالمين ". نزل ... عبر الجسر ... ملأ صـدره بهـواء الصـباح وعبـأ قلبـه بأمل جديد.

الضـيوف مـلأوا الحجـرة ... وافترشـوا جـزءا مـن السـطح المقابـل ... أهـل زوجتـه وبعـض المصـريات لا يعـرفهن ... صديقات أم غائب ... هدايا وعلب وكراتين ... أشارت لـه أم غائب إلى بوتجاز جديد في كرتونتـه وتليفزيـون ... وشـيء آخر قالت له أنه فرن كهربائي ... أحضرهم إلى هنا صـديق له ... قال إنهم هدايا جبرائيـل ... دخـل الـزاوي وسـلم ... وجلس مع مجموعة من الرجال، كل منهم قـدم نفسـه ... هذا خال أم غائب، وهذا عمها وابن خالهـا ... المهـم أنهـم

أقاربها لا فرق بين الخال أو العم ... قالوا أنها شكرت فيه كثيرا عندما عرضت عليهم رغبته ورغبتها في الارتباط ببعضهما ... قالوا أنهم وافقوا ... ستصبح في ذمة رجل ... خاصة وأنها عشقت بغداد ورفضت دعوات أهلها المتكررة في العودة إلى البصرة ... دارت أكواب الشاي وأم غائب مثل النحلة ... تقدم بعض الحلوى للسيدات ثم تأتي للرجال وتقدم لهم أطباقا من الطعام أو الحلوى لم يعرفها الزاوي من قبل، أخذوا سهرتهم ثم انصرف أغلب الجمع وبقى خال أم غائب ... أوصى الزاوي خيرا بها ... فهي طيبة القلب مخلصة وانتقل إلى ما كان يشغل قلب الزاوي ... انه يعرف عائلة منور هاشم وعشيرته ... وكانت له علاقة بمنور نفسه فقد كان بينهما تجارة استمرت لسنوات ... كان منور يورد إليهم الخضروات والفاكهة من منطقة الخالصة ... كما انه يعلم بقصة اختفاء زوج ابنته المصري إلا انه لم يفاتحه في الموضوع على الإطلاق، وأبدى نصيحة عابرة " إذا كنت تريد البقاء في العراق فأنت في حاجة إلى أربع عيون وعشرة أذان ولست في حاجة إلى الإطلاق إلى لسان "! أخبره أن منور هاشم يقيم حاليا هو وأسرته في مدينة " الشطرة " وهي ليست بعيدة عن البصرة ... وقد يأتي به إلى بغداد في الزيارة القادمة والتحادث بشأن ابنه " فرج " وطلب منه أن يحفظ لسانه ... ولا يحكي عن منور هاشم أو منطقة " الشطرة " على الإطلاق مؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن منور هاشم وعائلته وابنته " عامرة " يعلمون مكان " فرج ".

خففت " أم غائب " الكثير من متاعب الزاوي إلا أن قلبه المسكون بابنه كان مصدر شقائه الدائم، بالإضافة إلى المشاكل التي بدأت تظهر بينه وبين رئيسه المباشر في العمل، لقد تخطاه، وأصبح ينقل المعلومات بنفسه إلى جبرائيل، كما أن " أم غائب " تحولت لمصدر هام وكنز من أسرار العراق المغلقة ... رئيسه في العمل غير له " الوردية " وجعله يأتي للفندق في " دوامين " لا دواما واحدا، الداوم الجديد من الساعة السادسة صباحا حتى الثانية عشر ظهرا ومن الرابعة حتى الثامنة مساء أو التاسعة، فقد علم بزواجه واستشاط غيظا لأن الزاوي لم يخبره قبل حدوثه ... وزاد غيظه نارا عندما علم أن الزاوي اقترن بعراقية ... وكأنه تزوج أمه ... أظهره وجهه القبيح وبدأ يسب المصريين علنا أمام الزاوي وينعتهم بأحقر الصفات، انقلب حاله ومزاجه وبدلا من حديث الدائم عن " الأمة الواحدة " وأننا جميعا عرب وأخوة إلى أن مصر سبب نكسات العرب وهي ليست " أم الدنيا " ولكنها " أم البلاوي ".

تعود أن يذهب إلى البيت ظهرا ... يتناول غداءه مع أم " غائب " ويأخذ جزءا من الراحة ثم يعود إلى الدوام الثاني في الفندق ... قل كلامه وحديثه وطريقة مداعبته ... اكتشفت " أم غائب " تغييرا ... كانت فترات صمته تطول ... وزاد عدد السجائر التي يدخنها يوميا ... زادت عصبيته، شعرت به وأحسته ... حاولت أن تفاتحه فيما يجري ... تحاول أن تعرف ماذا يحدث في ساعات العمل ومن هو رئيسه وما علاقته به، إلا أن نصيحة خالها له بالاستغناء

عن لسانه بدأ يطبقها معها ... كانت تلح ولا تمل، إلا أنها كانت من الذكاء بما يجعلها تستطيع تحويل اللحظة قبل نقطة الغضب ... إلى ساعة صفو!

العمل أصبح كريها ... والمكان لم يعد يحبه ورئيسه في العمل فظ ... يسب المصريين علانية أمامه وهو لا يعرف ماذا يعمل معه ... وكيف يسترضيه! وتخفف " أم غائب " عنه ... وتحكي له عن غيرة الرجال العراقيين من المصريين، خاصة عندما يعلمون باقتران المصري من عراقية ... وتبرر له هذه الغيرة بأنها طبيعية وأن المصري أيضا قد تأكله الغيرة من خليجي يتزوج مصرية. يأتي حديثها شافيا مهدئا ... يزيح عنه بعض آلامه ويزيل عنه بعض متاعبه. ربط بين غيرة رئيسه في العمل منه ... وغيرة أمثاله من ولد مثل ابنه " فرج "، فقد يكون ولده راح ضحية لهذه الغيرة ... ألم يتزوج هو أيضا عراقية ... وذهب للإقامة معها في مسقط رأسها ... " فرج " قد يكون ذهب ضحية وشاية أو غيره من هذا النوع!

لقد كانت رسائل " فرج " تفوح بحب العراق وحب أهلها ... وحبهم للمصريين، كانت رسائله لا تخلو من إشادة بصديق أو جار عراقي كان يتحدث عن ناسها وكأنهم ملائكة، وفي أجازاته عند يسأله البعض عن النساء والخمور يدافع وكأنه يدافع عن أهله ... يقول عندنا في العراق مثل شعبي " إن في كل بلد مقبرة " وفي كل بلد يوجد الصالح والطالح ... ولا يمل من قول عندنا في العراق وكأنه صار عراقيا ... كان يحضر في الأجازات ولديه شرائط لمطربين عراقيين، حفظ الزاوي أغانيهم وأسماءهم من

كثرة تشغيل أغانيهم طوال فترة وجوده في القاهرة، وهو ما أدهش " أم غائب " بعد زواجها منه عندما علمت انه يحفظ أغاني سعدون جابر ورضا الخياط ويدندن بصوته الخشن ... " هلا ... بيك ... هلا ... يا أبو رجل ذهب ... يا محبوب الشعب " ... " أحيا وأموت على البصرة ... " تداعبه أم غائب وتطلق عليه اسم عندليب الرافدين دجلة والفرات!

" أم غائب " كانت الهبة السماوية التي ألقيت في طريقه أو ألقت نفسها أمامه انتشلته من مأزقه ... لقد قرر الارتباط بها بعد سقوطه طوعا في براثن جبرائيل، فحافظت على سلامته النفسية بعض الشيء وملأت عليه الجزء الأعظم من حياته بعدما خرج منها " أبو طه " وساعدته عندما فقد السند وحافظت عليه عندما فقد القدرة على الحفاظ على نفسه ... كانت " أم غائب ؛ عيونه وآذانه ... عيونه الأربعة وأذانه العشرة كما قال له خالها ... استطاعت بهدوء أن تثقب في جدار صمته ثقبا ... تسللت إليه وعلمت منها متاعب مع رئيسه في العمل وأوضحت له ما كان بجهل وشرحت له ما غاب عن عقله ومداركه ... وأكدت له أن الكراهية قد تدوم ... فهي أطول عمرا من الحب، الكراهية دائما أعمق جذرا لأنها تتراكم مع الأيام والسنين، إلا أن الحب مثل النبتة الطرية من الممكن أن تقتلع بسهولة أو تدهس بطريقة أسهل ... كان يستمع إليه كطفل ... أنها تعرف من الأشياء ما لا تعرفه " صابرة " وتقول له ما لم يسمعه من أم عياله طوال عمره.

حكت له على أجزاء ... تطور العلاقة بين المصريين والعراقيين ... الحب الذي نما إلا انه لم يجد من يرعاه والكراهية التي ظهرت في الأرض فوجدت من يحفر لها لتزداد عمقا ... الحوادث ظهرت فجأة بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ... كلامها منطقي ... عمل المصريون في العراق وكسبوا ... كان هناك من يحسدهم، يدخرون ويشترون محلات وقد جاء بعضهم لبغداد بعدما استدان في مصر تذكرة السفر ... لا عيب ... بعضهم كان يرسل كل ما يكسبه إلى مصر ... حوالات لا تنقطع ... وبنك الرافدين أول مكان يعرفه المصريون في بغداد ... قبل معرفتهم بموقع شركة مصر للطيران والتي لا تبعد كثيرا عن المقر الرئيسي للبنك، جاءوا للعراق ... وانتشروا في جنوبها وشمالها ... أحبوا الناس والناس أحبوهم ... شهدت أم غائب وصول أول مصري إلى المربعة ... سعيد النظيف ... قال انه قدم من لبنان ... وجاء بعده بلدياته وانتشروا في محلة السلطان علي والأزقة المتفرعة منها وانتهت الحرب وكان لابد من انسحاب المصريين!

انقلب العراقيون على المصريين، فقد احتل المصريون كل الوظائف في الحكومة والقطاع الخاص ... الحكومة تعتمد عليهم اعتمادا كليا ولا تفرط فيهم ... كفاءات في مختلف التخصصات والقطاع الخاص يفضل المصريين ... في الغربة تعلموا أن يحترموا قيمة العمل ... لا وقت للهزار، فقد جاءوا لهدف، كما أن صاحب العمل العراقي يرى أن التعامل معهم أسهل من التعامل مع العراقيين وأنهم أكثر طاعة والتزاما ... وفريق داخل الحكومة " حزب البعث "

يـرى أن إرهـاب المصـريين ونشـر أخبـار القتـل والاختطـاف سـيجبر المصريين على مغادرة العـراق دون إصـدار مرسـوم بطردهم ... الغيرة لها دوافعها ومسـبباتها، سـاهمت قرارات غبية في إشعالها ... منهـا علـى سـبيل المثـال لا الحصـر تقييد نسب التحويلات لكافة العاملين الأجانـب والمصـريون يمثلون النسبة الأعظم.

" أم غائـب " تؤكـد للـزاوي أن هنـاك بعـض المصـريين يعيشـون أفضـل مـن العـراقيين، اشـتروا منـازل ومحـلات، فالقـانون لا يمـنعهم وآخـرون ينفقـون ببـذخ فـي الفنـادق وكازينوهات نهر دجلة وعلى الساقطات في أبي نـواس ... كان الزاوي يرى بعض المصريين بصفة منتظمة في الفندق الذي يعمل به، بعضهم زوار والبعض الآخر من العاملين في العـراق يتـرددون علـى الفنـدق لتنـاول الغـذاء أو السـهر وبعضهم بالفعل يصطحب نساء عراقيات ... حاول أن يصدق أن الغيرة هي السبب، إلا انه لم يستطع تقبل هذه الغيـرة قد تلقي بأبرياء مثل ابـن " أبـو طـه " فـي السـجن أو أنهـا تؤدي إلى اختفاء ابنه " فرج " وإبعاده عن زوجته " عامرة " ... ابتلع ألمه ... وأحزانه ... قد يكون هـؤلاء الشـباب راحـو ضحية لوشايات من أمثاله!

أسر لأم غائب برغبته في الـذهاب إلـى سـعيد النظيـف لطلب مساعدته في البحث عن زوجة ابنه عامر في مدينة " الشطرة " ... كأن عقربا لدغها عند سماعها اسم سعيد ... نصحته بعدم الذهاب إليه أو مقابلته ... خاطبتـه بـنفس طريقة جبرائيل عند سماعه اسم سعيد النظيف، قالت لـه أنه رجل " ديله نجس " كما تقولون في مصر، لديـه امرأتـه

ونباته معه ... و " عينه زايغة " بصاص وبتاع نسوان، كما انه يعمل مرشدا على المصريين ويبلغ عنهم المباحث العراقية ... " لعنت " أهله وناسه وسبته بأمه وأبيه وتعجبت كيف يرضى على نفسه أن يكون سبب إيذاء المصريين! كلماتها سكين تقطع في قلب الزاوي الذي لم يعد فيه مكان لمزيد من التمزيق أو الطعن.

قالت أنها سمعت أن سعيد النظيف هذا كان تاجر مخدرات قبل مجيئه إلى العراق وأن لديه عصابة كبيرة لم تعد تعمل في المخدرات فالاتجار بها في العراق عقوبتها الإعدام ولكنه يعمل فيما يبدو في تهريب الأموال ... يرسل لأسر المصريين في مصر ما يرغبون فيه من أموال ويأخذ المقابل هنا بالعراقي ... يقولون إن سعره أضعاف سعر التحويل في البنك ... كما انه يستفيد من علاقاته ببعض المسئولين العراقيين الكبار ... يأتي منهم من يتسلم ثلاث أو أربع حقائب بلاستيك كبيرة كل خميس مليئة بالأموال، فهي تعرفه وتعرف نجاسته و " جريه " وراء النسوان كما انه " خمورجي " يمسك بسبحة ويهرع إلى المسجد عند كل صلاة تظاهرا بالورع والإيمان وأطلق عليه أهل بلده في " الرايحة والجاية " الحاج سعيد ... الحاج سعيد! ولم تسمع أبدا انه سافر للحجاز!

اتسعت حدقتا عيني الزاوي، الأخبار تأتي له ولا يسعى إليها ... وقد تهم جبرائيل وعليه تقديمها له بطريقة تسيل لعابه على أن يقرنها بطلباته، أولها البحث عن زوجة ابنه في مدينة الشطرة القريبة من البصرة، العمل على نقله من الفندق حتى لا يرتكب جريمة مع رئيسه البذيء

والنقطة الأكثر أهمية التسريع في عمليات البحث عن " فرج ". سألته أم غالب إذا كان يرغب في كوب من الشاي وطمأنته أن خالها لن يغيب أكثر من أسبوع أو عشرة أيام وقد وعدها بإحضار احد أقارب عامرة في زيارته المقبلة، مسحت براحة يدها على صلعة الزاوي وبقايا شعره المتناثر على جانبي الجمجمة وأوصته بالصبر ... هذه الكلمة التي لم يعد يطيقها ... ففي مصر يقولون إن " الصبر حرق دكان العطار! " والصبر هنا حرق أعصاب الزاوي!

(13)

عندما تقاضي الزاوي راتبه أول الشهر، ذهب كعادته إلى الحاج إبراهيم الحلي وكسر العادة بشراء بعض احتياجات المنزل من محله ... عاد محملا بأكياس وأشياء ... وضعها أمام أم غائب ووضع في " حجرها " راتبه كله وأخبرها انه احتفظ لنفسه بأربعين دينارا، طوقته أم غائب بدعائها وشكرت اهتمامه وكرمه وهو ما لم يسمعه من " صابرة " طوال ثلاثين سنة ... أخبرته بما أدخل السرور عليه، لقد جاء خالها من البصرة وبصحبته منور هاشم وابنته " عامرة " وذهبوا جميعهم لزيارة بعض الأصدقاء وسيأتون لتناول العشاء معهم ... وقد ذهبت إلى منزلها القديم وأعدته لمبيت الضيوف ... لم يصدق أذنيه، احتضنها وقبلها بطريقة صبيانه، وسرعان ما وصل الضيوف ... عرفته عامرة على الفور فقد ورث " فرج " كل ملامحه باستثناء " الصلعة " ... طمأنوه ... فرج بخير ... حي يرزق ... لم يتبين بعض كلامهم ومفرداتهم اللغوية ... قامت أم غائب بدور المترجم ... فرج حي يرزق إلا انه في حاجة لمعجزة ... تكلم منور باختصار شديد وترك لابنته الإسهاب ... تساءل عن سبب انقطاع الرسائل، لم تفصح كثيرا، تحدثت عن طريقة تعرفها بفرج وقصة الزواج والعمل مع أسرتها، ثم ظهور " أولاد الزنا " الذين أقنعوه بإنشاء شركة خارج العراق ... سافر معهم إلى الكويت ... أسسوا الشركة واختفوا ... كان فرج مجرد " ستار " واجهة لناس لا يعرفهم ... وجدوا فيه ضالتهم وفي النهاية تركوه ... وترك هو أسرته لعذابها

وقد نال منور هاشم جزءا من العذاب ... طاردته الشرطة من مكان لآخر ... انتقل للعيش مع أقارب له في مدينة " الشطرة " وتركته الشرطة بعدما تأكدت انه لا يعلم شيئا عن نشاط " فرج ".

" فرج " محبوس في سجن البصرة العام، بلا تهمة محددة ... الشرطة تطلب منه طلبا واحد، أن يذكر أسماء شركائه من العراقيين، إلا انه مصر على الإنكار، مدعيا أن الشركة شركته ... وهم يعلمون استحالة هذا، فالشركة خلال فترة قصيرة كانت تعاملاتها بملايين الدنانير ومن أين جاء بهذه الملايين، الشرطة تعلم أن وراءه رجال كبار ... قد يكونوا أعضاء في الحكومة أو حزب البحث، سأل الزاوي إذا كانت القضية خاصة بالتهريب نفت " عامرة " مؤكدة أنها اكبر من مجرد تهريب، الشركة كانت للتوريدات العمومية ... تستورد أجهزة وأشياء للحكومة والوزارات ... منها أجهزة للمستشفيات والجامعات ... إلا أنهم اكتشفوا فجأة أنها غير مطابقة للمواصفات ... هرب شركاؤه وسقط هو ... ويرفض مجرد الإدلاء بأسمائهم.

دخل الزاوي محنة أبو طه، بدأ التفكير في السفر للبصرة والإقامة هناك ... سأل " عامرة " إذا كانت تزوره ... أبلغته أنهم سمحوا لها بزيارته بعد أربعة شهور كاملة من حجزه، منور هاشم طلب منه ألا يبلغ أحدا، بزيارته تلك، فهو لم يقابله ... ولم يتحدث إليه ... اختصارا وعملا بالمثل الشائع لا لسان لأحد! فالعراق كلها عيون وكلها أذان ... ولكن لا ألسنة!

عرض منور هاشم على الزاوي أن تبقى معهم عامرة إذا رغبت ... أو أن تعود للشطرة إذا أرادت لتكون بالقرب من البصرة ... فهو أبوها ... وهم أهلها، تدخلت أم غائب عندما لاحظت تردد عامرة في اتخاذ قرارها ... وأوصتها بالبقاء في " الشطرة " إلى أن يدبر علي الزاوي أموره ويبحث كيفية الذهاب إلى ابنه ولقائه ... المكان لا يسع إقامة الضيوف، طلبت أم غائب الذهاب إلى منزلها والمبيت هناك الليلة، وليسافر من يرغب في الصباح على أن تترك " عامرة " رقم تليفون قريب منها للاتصال بها أو أن تتصل هي بصديقة لأم غائب وأعطتها رقما وأن تقوم بزيارة " فرج " في محبسه وإبلاغه بوجود والده في بغداد، الفرحة عند الزاوي تنقلب إلى قلق وعدم نوم ... والحزن يتحول لفزع يطرد من عينيه النوم أيضا قضوا جميعا ليلتهم في منزل أم غائب ... في الصباح تحركوا إلى " علاوى الحلة " ومنها إلى الشطرة والبصرة ... وعاد الزاوي إلى مقر عمله يلعن الأيام والأبناء ... يلعن هوجة السفر ويلعن طوق الفقر المعلق في الرقاب وحلم الثراء!

الملل تسلل إلى الزاوي وحياته ... العمل ورئيسه وخشيته من المواجهة معه، فقد يخبطه بالمقص الكبير خبطة واحدة فوق رأسه، إلا أن النهاية ستكون السجن ... وسجن بعيد عن سجن ولده ... أم غائب وقصصها التي لا تنتهي والتي لم يعد يتوقف فيها إلا على المعلومات التي يمكن تبادلها بخدمات مع جبرائيل ... عامرة لم تتصل كما وعدت وخال أم غائب كأنه أدى مهمة صعبة واختفى ... " فص ملح وذاب " ... أما منور هاشم فقد شعر الزاوي من

البداية انه جاء مرغما وليست لديه رغبة في أن يورط نفسه في قضية " فرج " تلك. المنقذ قد يكون جبرائيل إلا أن الزاوي أدرك كذبه بعدما علم بسجن ابنه، فهذه الأمور لا تخفى على جبرائيل ولابد وانه يعلم أن الولد في السجن ... وفي سجن البصرة العام ويعرف جريمته ... إلا انه يريد الإبقاء على علي الزاوي أطول فترة ممكنة في العراق، فهو يخبره بكل ما يعلم ... وكل ما يسمع ... وكل ما يرى وأصبح مصدرا هاما للمعلومات داخل المربعة وخارجها ... فكر في مقابلة المستشار العمالي المصري الذي " صدع " به رأسه أبو طه ... يوسف شرف الدين ... إلا أن الاقتراب من السفارة المصرية أو العاملين فيها قد يثير غضب جبرائيل!

أم غائب لديها قريب ... من عائلتها يشغل منصبا هاما في بغداد ... يظهر أحيانا في التليفزيون ... من الممكن أن تذهب إليه وتطلب مساعدته ... قالت ذلك للزاوي ... أضافت أن قريبها هذا كان قد تقدم لخطبتها في شبابها قبل ارتباطها بالمرحوم زوجها، تجمعت سحب الغضب على جبهة الزاوي، لذكرها المرحوم ... وخطيبها السابق ... أدركت ... وأوضحت أن المسئول قريبها متزوج ولديه أبناء وبنات كبار ... همهم الزاوي بشيء من الغضب ... قالت له بأن الله الذي دلهم على زوجة فرج وجاء بها إلى هنا، سيدلهم على سبيل للتوصل إلى ابنه ... ليس أمامه سوى جبرائيل، إلا أن جلسته لا يحبها رغم طول معرفته به، فالدخول عليه مثل الدخول على عزرائيل، إلا أن " المحتاج يركب الصعب "! ... لا يرغب أيضا في البوح

بعلاقته بجبرائيل هذا بعدما سمع سباب أم غائب لسعيد النظيف الذي نعتته بأقذر الصفات لتعامله مع المباحث والمخبرين!

الحركة في الفندق ... زادت ... وفود تجيء ووفود تذهب ومن التليفزيون الهدية ... هدية زواجه التي أرسلها جبرائيل بدأ يدرك أن هناك مشاكل بين العراقيين والكويت ... وأن هناك خلافات على فلوس بترول ... حقول بترول ... العراق تصر على أن البترول من أراضيها والكويت تقول أن هناك اتفاقيات لا يمكن الرجوع فيها ... الفندق يتم إخلاؤه أحيانا على وجه السرعة استعدادا لاستقبال مسئولين من مصر أو الأردن أو اليمن، رئيسه في العمل طلب عودته مرة أخرى إلى نظام العمل السابق ... وردية واحدة ... دوام واحد وليس دوامين ... من الصبح حتى بعد العصر على أن يروي الحديقة مرة واحدة فقط في اليوم، أصبح لديه متسع من الوقت، إلا أن رئيس العمل كثف سبابه وشتائمه للمصريين خلال الوردية الواحدة.

في ساعة صفا ... سأل " أم غائب عن إمكانية مصاحبته والسفر إلى البصرة معه لزيارة ابنه ... لم تمانع إلا أنها أخبرته انه في حاجة لأجازة أسبوع على الأقل، فقد يسافر دون ترتيب وقد لا يسمح له بزيارة ابنه إلا بعد ثلاثة أو أربع أيام والأفضل انتظار مكالمة عامرة أو الاتصال بها قبل وصولهما إلى البصرة والمرور عليها في الشطرة واصطحابها معهما ... رأسه أصبحت مثل البيضة " الممششة " ترتج من الداخل بسبب التفكير الدائم ... علق مناقشة الأمر ... " بعدين أشوف! " ... زيارة جبرائيل

شر لابد منه ... دخل عليه مكتبه شاكرا له هديته، متعللا بانشغاله بالعمل واستعدادات الزواج ثم الزواج ... أخبره أن رئيسه في العمل لا يطاق ويطمع في كرمه ونقله من هذا الفندق ... ويزف إليه بشرى التوصل إلى معلومات بشأن سعيد النظيف، كما يخبره بالعثور على أبنه مسجونا في سجن البصرة العام ... ابتسامة لا تحمل أية دلالة على شفتي جبرائيل ... وتتوالى الإجابات ... رئيسه في العمل سينقل خلال أيام وعليه تحمله، ... الأهم سعيد " اللي مش نظيف " هذا ... حكى له قصة " أم غائب " كلها ... طلب منه جبرائيل معرفة رقم السيارة التي تصله كل خميس وانتقل لمهمته الأساسية في الاستجواب والتحقيق ... سأله عن كيفية معرفة مكان ابنه ... ذكر له انه عثر على زوجته " عامرة " وهي تزوره في السجن بانتظام وعرف قضيته ... أخرج جبرائيل من مكتبه ما يشبه الخطاب ... مرره أمام وجه الزاوي ... قائلا لقد جاءني بالأمس فقط، فيه معلومات عن وجود ابنك في سجن البصرة ... وإن لم تأت اليوم كنت سأرسل من يستدعيك! تظاهر الزاوي بتصديقه ... خبط بكفه على المكتب مؤكدا أن هذا الولد لن يخرج من السجن إلا بعد أن يعترف على شركائه ويذكر من هم ... ووعده بشرفه بالإفراج عنه بمجرد انتهاء التحقيقات ... حيث أن الولد تورط بلا علم!

الزاوي لديه طلب أخير وليس على الله بكثير تلبية طلبه كما أن جبرائيل له من النفوذ والصلاحية ما يمكنه من مساعدته ... الطلب بسيط ... فهو لا يطلب الإفراج الآن عن فرج ولكن يطلب نقله إلى سجن داخل بغداد ليتمكن

من رؤيته ويساعد الشرطة في الضغط عليه للاعتراف بشركائه ... كما يطلب الإذن له بالسفر إلى البصرة لرؤيته ... أذن له جبرائيل ... وأوصاه بتقديم التماس بنقل ولده من البصرة لبغداد ... ووعده بالتوصية على أن يعده هو بالضغط على ابنه ليعترف بأسماء الشركاء ... وأذن له بالانصراف.

قدم طلبا للقيام بأجازة لمدة أسبوع، لم يوافق رئيسه إلا على ثلاثة أيام فقط، وضع إمضاءه والتاريخ وجملة وظيفية رويتينة " يعود لعمله الثلاثاء 31 يوليو 1990 ". اصطحب الزاوي أم غائب إلى " الشطرة " أولا ... الجو قيظ ... الأجساد لزجة والطريق إلى الجنوب يعج بالسيارات والأتوبيسات المدنية والعسكرية ... ركاب الأتوبيس يردون على استفسارات بعضهم البعض، هناك من يقول إن هناك مناورات عسكرية في الجنوب أذاع عنها تليفزيون بغداد ... آخرون يؤكدون أن سبب الزحام " عاشوراء " والناس تتوافد من كل مكان بالعراق لزيارة كربلاء حيث مشهد سيد وزينة شباب أهل الجنة الإمام الحسين ثم يعرجون إلى النجف حيث مرقد الإمام علي. من الشطرة ... أخذوا عامرة ... تفحص الزاوي وجهها ... مليحة التقاطيع ... بها انكسار ... أعانها الله ليست بقوة أم غائب ... أنها أقرب إلى " صابرة " أخبرتهما بزيارتها إلى فرج بمجرد عودتها من بغداد لم يصدق أن أباه بالعراق، استقلوا أتوبيسا آخر إلى البصرة ثم سيارة أجرة إلى السجن العمومي ... قدم طلب الزيارة ... وافقوا على الفور يبدو أن جبرائيل وفى بوعده وأرسل توصياته، الزاوي يتصبب عرقا ... يخشى اللقاء ... يخشى

التوسل لابنه والانكسار أمامه، يخشى أن يعود إلى القاهرة كما جاء ... دون ولده " فرج ".

النسوة بقين بالخارج وأدخلوا الزاوي حجرة انتظار ... وبعد دقائق أدخلوا عليه فرج اندفع بكل قوته لاحتضان أبيه ... انحنى يقبل يديه ... دموعه بللت صدر أبيه إلا انه تماسك ... يتحسس بأصابعه كتفي ابنه ووجهه ... تحوط يداه ظهر ابنه ... يكاد أن يبكي ... يطلب فرج السماح والمغفرة ويأسف لما سببه من عذاب لأبيه وزوجته عامرة وأهلها، يطلب من أبيه أن يدعو له في محنته ... يصرخ فيه الزاوي طالبا أن يساعده هو في اجتياز أزمته وأن يعترف بأسماء شركائه ... يبكي فرج ... لسان حاله يقول انه لن يستطيع أن يبوح بأسمائهم ... يخبر أباه بأن هناك فاتحة قد قرئت بإخفاء أسمائهم ... ينهره الزاوي قائلا! الفاتحة عندنا في مصر ... ليست هنا، أبوك " بيسف " التراب عشانك ... أبوك انكسر واتهان ... أعاد على مسامعه ضرورة الاعتراف وإلا لن يخرج من السجن ولن يغادر العراق ... وأن هناك من وعدوه بالإفراج عنه بعد اعترافه على شركائه ... وأنه قد ينقل إلى سجن قريب من بغداد شريطة الاعتراف، ذنب أسرته كلها في رقبته ... ذنب عامرة المسكينة التي " سلاها " العذاب في رقبته ... ذنب أمه وأخوته في رقبته! لقد جاء أبوه إليه ليس لإنقاذه ولكنه قطع كل هذه المسافات لينقذهم هو! وانتهت الزيارة. خرج ولم ينطبق بكلمة ... سواء لأم غائب أو عامرة!

كما جاءوا ... عادوا ... نزلت " عامرة " في الشطرة واستمر الزاوي وأم غائب إلى بغداد لم تنظر إليه ولم ينظر إليها ... الطريق أسود ليل ... دبابات تسير في الاتجاه المعاكس، جنود شرطة عسكرية يستوقفون السيارات، وصلوا بغداد بعد أن قضوا ثلاثة أيام في البصرة ... زاروا " فرج " وزاروا أسرة أم غائب ... الاحتفاء بهما كان حارا أشد من حرارة الجو، إلا أن قلب الزاوي كان يغلي من إصرار ابنه على عدم الاعتراف على شركائه ... أوصل أم غائب إلى المنزل وذهب مباشرة لجبرائيل ... لم يجده في مكتبه ... انتظره أكثر من ساعة، جاء متجهما، طمأنه الزاوي على الرحلة وعلى الزيارة وتوسل إليه أن ينقل فرج إلى سجن قريب، فالرحلة مضنية ... والطريق صعب والسن لم يعد يسمح ... وعده خيرا ... والزاوي يلح عليه ... أكد له أن فرج سيبيت غدا في سجن " أبو غريب " غرب بغداد وطلب منه الانصراف لانشغاله بأمور أهم ... أول مرة يطلب منه الانصراف ... فانصرف!

(14)

بغداد ليس التي عرفها أول مرة ... هناك شيء ما في الأفق ... تحول التجهم فيها إلى كآبة، سيارات مصفحة بالقرب من الفندق ... وتحت الجسر ... رئيسه في العمل تم نقله بالفعل خلال أجازته، جاء بدلا منه رجل بزي عسكري ... الفندق لم يعد فيه زوار ... قضى يومه وعاد ... أم غائب مشغولة في " الطبيخ " وإعداد العشاء ... الرائحة نفاذه، إلا أن " النفس مسدودة " تحاول قدر استطاعتها إخراجه من حالته المتردية ... تحدثه بالمصري ... تعاتبه ... " من لقى أحبابه نسي أصحابه " " تعده بوجبه يأكل أصابعه وراءها " ... الذهن شارد والقلب مهموم ... تذكره أن الليلة عاشوراء ... العاشر من محرم ... وهو غير مكترث يفكر في ولده " فرج " وإذا كان يستجيب لتوسلاته أو انه سيركب رأسه ... تناول عشاءه ونزل على عجل لمقابلة جبرائيل ... نعم قابله بالأمس ... إلا انه وعده بنقل ولده إلى بغداد ... وانه سيبيت ليلته فيها ... لأول مرة يري مبنى الأعظمية مكتظ بالناس ... البعض يهرول على السلالم ... والبعض يدخل ويخرج من المكاتب على عجل ... عندما جاء المبنى أول مرة لم يرى سوى الحارس وجبرائيل ... بغداد لم تعد بغداد التي عرفها! بطرف إصبعه أشار له جبرائيل أن الولد جاء لسجن بغداد وأشار له بالانصراف! قضى ليلته واستيقظ استحم وصلى الفجر " حاضر " وهو ما لا يفعله إلا نادرا ... أعدت له أم غائب فنجانا من القهوة ... وحاولت مداعبته ... "

شعرك أبيض وأصلع ولكنك مثل شاب في العشرين ... لا تعلم أن الفترة التي قضاها في العراق أضافت إلى الثلاثة والخمسين عاما من عمره ... خمسين أخرى ... تبسم لها ... وطبع على جبهتها قبلة وهو ما لم يفعله أبدا مع صابرة ... نهض ليلحق بعمله وقبل أن يغادر الحجرة ... أذاع التليفزيون نبأ دخول القوات العراقية إلى الكويت فجر اليوم الخميس الثاني من أغسطس ... الحادي عشر من محرم ... " تسمر " على الباب لحظات ثم انصرف!

لم تتغير بغداد وحدها ... تغير فيها البشر وتبدل العراقيون والمقيمون ... جنسيات بدأت في الرحيل عنها وآخرون قدموا إليها ... المقاهي مزدحمة بالعاطلين مشاهدة التليفزيون مهنتهم الوحيدة ... الحديث عن السياسة وتهديدات أمريكا ... وخروج الكويتيين ... واستعدادات السعودية والطائرات التي لا ينقطع أزيزها في الجو وكأن الحرب نقلت إلى بغداد ... صدام حسين وخلفه العلم العراقي ... أصبح المذيع الدائم والوحيد في التليفزيون يهدد ويتوعد ... والزاوي لا يعلم مصيره وإلى أين المسير وما الخطوة القادمة، فالولد مصر على عدم الاعتراف وجبرائيل كشف عن وجهه القبيح ... طرده من مكتبه آخر مرة ... وطلب منه عدم المجيء إليه مرة أخرى ... إلا في حالتين إما حصوله على معلومة لا تقبل التأخير ... أو استعداد ابنه للاعتراف ... وفي كلا الحالتين الأفضل ألا يأتي إلى مكتبه ... أعطاه رقم تليفون ليتصل به ... يخبره أو يخبر غيره المتواجد في المكتب بما يريد إبلاغه به

... قال له انه مسموح بزيارته لابنه مرة كل شهر ... أمره بالانصراف دون أن يمد يده للسلام عليه!

الأيام تمر متثاقلة ... تسحب وراءها شهورا انتهى الصيف بحراراته ولزوجته ... وقرفه ... تشاور مع " أم غائب " في إمكانية إحضار " عامرة " للإقامة معهم ولتكون قريبة من زوجها ... لم تمانع واتصلت بالفتاة ... وجاءت ... ربما يساعد لم الشمل الزاوي على الخروج من محنته ... انتقلوا جميعا للإقامة في منزلها القديم ... دار عربية مكونة من أربع حجرات ... وحجرة كبيرة " للخزين " وحمامين ... وحجرة منفصلة للضيوف ... صحن الدار واسع كبير غير مسقوف، في منتصفه نخلة " بصراوي " قصيرة ... غير مثمرة إلا أنها تبسط ظلها على المكان ... السور من داخل الدار مزروع بالصبار والريحان ... يد الإهمال طالته ... يعود الزاوي من عمله يروي الريحان ويقلم الصبار ... وأتى معه من الفندق بـ " عقلة " ياسمين ... غرسها بجانب المدخل.

أدمن مشاهدة التليفزيون ... لا يتحرك من أمامه إلا بعد سماع السلام الجمهوري ... وأحيانا يغفو في مقعده ... توقظه أم غائب ليكمل نومه على سريره ... الفتاة لا تغادر حجرتها إلا إذا نادت عليها أم غائب أو أبو فرج. مثل أيام بغداد ... عرفت علامات الذبول طريقها لوجهها المليح ... يوصيها الزاوي بالصبر ويدخل حجرته يبكي كما كان يفعل أبو طه ... اصطحبها هي وأم غائب لزيارة فرج ... قبل أن يسأله عن المرأة الأخرى ... أخبره انه زوجة أبيه ... اقترن

بها هنا في بغداد ... قال له انه آخر مرة قد تزوره فيها " عامرة " ... لم يسأل عن السبب ونظرت إليه الفتاة في محاولة للاستفسار!

لابد من الضغط على " فرج " كما قال له جبرائيل وسيذهب إلى زيارته المرة القادمة دون " عامرة " وأوضح لها الأسباب ... سيخبره برغبتها في العودة إلى أهلها ... كفاها ما لحق بها من أذى وضرر ... وانه من الرجولة أن يسرحها بإحسان وأن يطلقها لتذهب إلى حال سبيلها ... بكت " عامرة " ... أفهمها أن هذا أفضل طريقة للضغط عليه ... وإذا كان يحبها بالفعل لن يستمر في تعذيبهم وإذا كان لا يحبها، فهو لا يستحق أن تبقى على ذمته ليوم واحد، طلبت منه " أم غائب " الرفق بالفتاة، فهي لم تعد تحتمل ... ذهبت عامرة إلى حجرتها وانفجر الزاوي في البكاء.

احتضنته أم غائب ... وضعت رأسه في صدرها ... ربتت على ظهره ... فيضان من الدموع والآلام ... جسده يهتز وكأنه أصيب بالحمى ... يتساءل بحرقة عن سبب " الخلفة " والأبناء وهل نأتي بهم ليعذبوننا ... طلبت منه الاستغفار ... نام على صدرها كطفل أنهكه البكاء ... " سندته " وعلى سريره وضعته ... " غطته " ... الزاوي لم يعد كما عرفته ... هزمه اليأس وجحود الابن! ذهبت لحجرة " عامرة " " تتسالف " معها وتبيت ليلتها بجوارها، فوضعها ليس أحسن حالا من وضع " أبو فرج " ... البنت ترفض فكرة الطلاق تصر هي أيضا على البقاء بجانب فرج إلى أن

يفعل الله أمرا كان مفعولا ... تتعجب أم غائب في قرارة نفسها عن سر عشقها للزاوي ... وسر عشق البنت لابنه! تخبرها أن أبو فرج يلوح بموضوع الطلاق لإجبار الولد على الاعتراف!

جاء الحاج إبراهيم الحلي لزيارته ... قبله من كتفيه ... عاتبه لانقطاعه عن زيارته جلسا في صحن الدار ... الريحان رائحته تنعش الروح ... طلب الحاج إبراهيم شتلة منه، وعده الزاوي بإحضارها إليه وغرسها له أمام المحل بنفسه ... الزاوي لم يعد الزاوي ليس الذي عرفه الحاج عند قدومه إلى بغداد ... أطلق لحيته ... وأصبح قريب الشبه بأبو طه ... تلمس لحيته وداعبه. سأله إذا كان أصابه " لطف " مثل أبو طه، قهقه الزاوي نافيا " اللطف " عن الصعايدة وكأنهم من عجينة غير البشر ... حمله بعض همومه ... اشتكى له من " فرج " وكشف عن خوفه من الأيام القادمة في بغداد ... وأجواء الحرب التي تلوح في الأفق ... طمأنه الحلي أن بغداد لن تموت ... قد تتعثر ... قد تقع إلا أنها تقوم " عفية " على قدميها ... كل ذلك مكتوب في الكتب!

اليوم جمعة ... موعد زيارة فرج الشهرية ... حلق لحيته وذهب إليه ... لقد مر شهران تعمد ألا يزوره للضغط عليه، إلا أن الضغط الحقيقي كان على نفسه هو ... اليوم سيحسم الأمر معه ... سيخبره انه عقد العزم على الرحيل إلى مصر بدونه ... سيأخذ أم غائب معه ويتركه وحده لمصيره ... لا يعرف كيف يقول له مثل هذا الكلام ... إلا انه يجب قوله! قبل أن يسأله لماذا لم يأت لزيارته خلال

الشهرين الماضيين، أفهمه أن سيستقيل من عمله في الفندق ويعود إلى مصر ... فهو ليس " حمل " غربة ... الغربة لها ناسها ... اغروقت عينا فرج بالدموع ... استفسر هل سيتركه ... وماذا عن عامرة ... بلا اهتزاز أو خنوع ... أعلمه انه هو الذي سيترك نفسه للهلاك ويقضي حياته خلف القضبان ... وقبل أن ينهي الزاوي ... أعرب فرج عن رغبته في الاعتراف أمام جهات التحقيق! ... يا دليل التائه ... يا عدوي ... عادت الروح للزاوي!

اشترى بعض الفاكهة والمكسرات وعاد متهلل الوجه إلي " أم غائب " ... قرأته بمجرد دخوله ... ارتمت عليه ... سأل عن عامرة احتضن الاثنين ... بشرهما ... وأخبرهما أن الرحلة قاربت على الانتهاء ... وان هناك خطوتين لا ثالث لهما ... الإفراج عن فرج والخروج إلى مصر ... لم يطلبا معرفة المزيد. الإجراءات طويلة ... بدأها بالاتصال تليفونيا بجبرائيل يخبره برغبة الولد في الاعتراف ويؤكد عليه وعده بالإفراج عنه.

كان جبرائيل كريما معه وتظاهر انه رغم مشاغله التي لا يعلم حجمها إلا الله والضغوط التي عليه ومواصلة الليل بالنهار في المكتب، إلا أنه أوصى بالسماح لعلي الزاوي بزيارة ابنه فرج في محبسه يوميا حتى يتم الإفرج عنه، ولم ينس أن ينصحه بممارسة كافة الضغوط على ابنه للتعاون مع المحققين وإبلاغهم بكل ما لديه من معلومات إذا كان يرغب حقا في الخروج من السجن، وقبل أن يسأل الزاوي مزيدا من الأسئلة أغلق جبرائيل التليفون بطريقة

جعلت الزاوي يستشعر الصعب هو القادم وأن ما مضى من أحداث لا يقارن بما هو آت!

التوقيت هو المشكلة في زيارة ابنه، فالزيارات هناك في أوقات العمل الرسمية ... وهو الوقت الذي يقضيه الزاوي في عمله بالفندق ... جاء الفرج من عند الله عندما قررت إدارة الفندق الاستغناء عن بعض العمالة الزائدة ليتم تسريحه وإعطائه مبلغا من المال تحت مسمى نهاية الخدمة ... أبلغ عامرة وأم غائب بالخبر وأخبرهما انه سيتفرغ لزيارة فرج إلى أن يتم الإفراج عنه، في أول أيام الزيارة سمحوا له بلقاء ابنه لمدة تزيد عن النصف ساعة في حجرة مجاورة لمكتب المسئول الكبير في السجن والذي أبلغه تحيات جبرائيل وتوصيته عليه ومدحه له وخرج الولد إلى حجرة أخرى مجاورة لا يفصل بينهما وبين الحجرة التي يجلس فيها الزاوي سوى حائط زجاجي ضخم ... استطاع الزاوي من خلاله أن يشاهد المحققين ... أربعة وقد جلس أمامهم فرج كالفأر المذعور يتناوبون التحقيق معه وهناك شخص آخر يكتب ما يقال ... وقف الزاوي على قدميه ليتأكد من شيء موضوع على منضدة قريبة ... جهاز تسجيل فيما يبدو ... ما يقوله فرج يكتب في الأوراق ويسجله الجهاز ... ظن أن الجلسة قد تطول عدة ساعات ثم يأخذ فرج في يده ويعود، مضت ساعات العمل الرسمية والتحقيقات من وراء الزجاج لم تنته وأرسلوا للزاوي جنديا يخبره بضرورة الرحيل على أن يعود في الغد ولم يسمحوا له بوداع ابنه.

الأيام مثل بعضها ... لم يستجد عليها شيء ... يرى ابنه في الصباح ثم يدخلونه حجرة التحقيقات ويظل علي الزاوي يرقب من خلف الزجاج إلى أن ينتهي الدوام الرسمي ليعود إلى أم غائب وعامرة مرهقا لا يقوى على استكمال اليوم دون نوم الظهيرة الذي أدمنه ... بمجرد العودة ... تقدم له أم غائب الطعام وتجلس أمامه ... لا تأكل معه ولكنها ترقبه، مر من الأيام ما مر، توقف الزواي عن عدها ولم يعد يعرف الفرق بين السبت والخميس، كلها أيام يديرها رجال جبرائيل عبد الجبار وكل ما يفعله مشاهدة ولده صباحا ثم التطلع إليه من وراء الزجاج إلا أن ينتهي الدوام الرسمي، في اليوم الأخير ذهب كعادته إلى السجن قبل الثامنة صباحا أدخلوه إلى الحجرة التي اعتاد عليها ... احضروا إليه الولد ثم أخذوه ... أخذوا فرج إلى حجرة وعلى الزاوي نفسه إلى حجرة أخرى وإذا بثلاثة محققين يجلسون مع الزاوي نفسه ... يسألونه عن أسماء العراقيين الذين زاروا مصر وكانوا على علاقة بابنه فرج، نفي أن يكون قد عرف أسمائهم، إلا انه اعترف بأن فرج كان يذهب إلى احد الفنادق على كورنيش النيل أحيانا لمقابلة بعض أصدقائه العراقيين ... عادوا وسألوه إذا كان قابل احد منهم ... عرضوا عليه بعض الصور ... نفي مشاهدته لهؤلاء البشر من قبل ... الحركة في المكاتب تبشر بانتهاء الدوام الرسمي إلا أن التحقيق معه لم ينته، سأل الزاوي احد المحققين إذا كان هو نفسه موضع اتهام في قضية ابنه ... أجابوه بالنفي ... وتركوه في الحجرة وغادروا المكان ... لم يعرف كم مضى من الوقت وماذا

يفعلون في ابنه في الحجرة المجاورة ... ظنونه لم تستمر طويلا ... مخاوفه زالت عندما دخل عليه الحجرة شخص ضخم الجثة يقبض بيده على رسخ فرج ويسلمه له قائلا: ابنك معك ... من الممكن أن تغادروا العراق بأسره!

يا دليل التائه ... يا عدوي!

احتضن فرج وقبله دون كلام.. قبض بيده على رسخه حتى منزل أم غائب ... احتفلوا بخروجه، الاحتفال عند العرب وغير العرب لا يخرج عن حيز المأكل والمشرب، أطعمة كثيرة ... بعضها اشتروه جاهزا من المطاعم المجاورة ولم يجد جديد على الزاوي وأسرته الصغيرة سوى نوم " العصارى " والأيام مثل بعضها.

مر من الشهور ما مر ... لم يشغل الزاوي نفسه بحسابها وخرج " فرج من السجن " وأقام معهم ومع زوجته عامرة في دار " أم غائب " وانحسر تفكير العائلة بأسرها في كيفية الخروج من بغداد!

لم يعد يكترث الزاوي بالتليفزيون أو غزو الكويت أو التهديد الأمريكي ... يذهب للفندق صباحا يعود عصر ... يفكر في كيفية الخروج من العراق، اخذ قراره ... لن يعود لجبرائيل ... ومحاولات إذلاله ... كما أن جبرائيل وجد ما يشغله ويبعده عنه وعن المصريين وغيرهم ... أغلق الحجرة على نفسه ومعه " أم غائب " ... فرج في صحن الدار مع عامرة ... طال انتظارهما لخروجهما لم يخرجا من الحجرة إلا صباحا ... الكل في العراق يعد بالخير ... وعدته أم غائب خيرا ... وطلبت منه ترك أمر خروجهم جميعا من

العـراق لهـا ولأســرتها ... جـاء عمهـا حـاجم حـاجم أصـغر أعمامها ... سيارته كبيرة تتسع أكثر مـن سـبعة ركـاب ... قضى عدة أيام في بغداد ... خرجت معه أم غائب يوما بعد اســتئذان الــزاوي ... ذهبــا ســويا إلــى الشــهر العقــاري بالمحكمة ... استلم حاجم حاجم توكيلا عاما للتصرف في أمـلاك " أم غائـب " ... منـزل فـي بغـداد ... وقطعـة أرض زراعية في زمام البصرة ... وعاد من حيث أتى.

الحذر واجب ... لابد من مجـيء حـاجم حـاجم لزيـارتهم أكثر من مرة ... يتعود الناس علـى رؤيتـه، يصـطحبهم فـي جولـة بسـيارته داخـل بغـداد، ثـم يعـود بهـم ويسـافر إلـى البصرة ... سيأتي إليهم فيما بعد ... زيارة مثل كل الزيارات ... سيخرجون معه في جولة مثل الجـولات، سـيخرج بهـم من بغداد في اتجاه الغـرب ... إلـى الحـدود الأردنيـة ومنهـا في أمان الله إلى مصر ... يجب ألا يخرجوا بأية حقائـب قـد تثير الانتباه ... من الممكن شراء ما يرغبون فيه في طريق خروجهم ... المشكلة الأصعب وجد لها حـاجم حـاجم حـلا عن طريق معارفه، فقد يسمح للزاوي وابنه بالرحيـل ... إلا أن أم غائب وعامرة غير مسموح لهما بالسفر طبقا لقـانون يمنع مغادرة العراقية بصحبة زوجهـا الأجنبـي إلا بعـد مـرور خمس سنوات من الزواج. حاجم حاجم " لن يعدم الوسيلة " تؤكد ذلك أم غائبا دوما فهو لديه علاقات واسعة واتصالات أوسع وإن فشل، فالرشوة أهم من الوساطة وأكثـر سـحرا وأشــد مفعـولا، والبـاب الـذي لا تخترقـه الوســاطة تخلعـه الرشوة!

وصل حاجم حاجم في زيارة لبغداد تبدو أنها الأخيرة معه تصاريح الخروج وعاد فرج وعامر من " الشـطرة " بعـد زيـارة وداعية حزينة ... تجمع الجميع في دار " أم غائب " وأعلـن حاجم ساعة الصفر ... بعـد أذان الفجـر مباشـرة سـتتحرك السيارة إلى الحدود الأردنية ... إعلان عملية التحرك مثـل بيانات العـراق العسـكرية تمامـا ... حـاجم حـاجم أمـر مـن يرغب منهم فـي نقـل شـيء إلـى السـيارة أن ينقلـه فـي اللحظة والتو ... وأمرهم بألا يغادروا المنـزل حتـى يعـود ... تلقى الزاوي الأوامـر صـامتا، ينقـل عينيـه بـين " فـرج " و " عامرة " ويعـود ينظـر إلـى أم غائـب، التـي انكمشـت إلـى الـداخل ... تـدخل الحجـرات وتنتقـل بيـنهم، وكأنهـا تطـوف بالجدار طـواف الـوداع ... تخـرج إلـى صـحن الـدار ... تنظـر للنخلـة فـي أسـى واضـح وكأنهـا تعـد جريـدها ... تـداعب سـيقان الريحـان وأوراقـه ... أخـذت بعـض البـذور مـن " الشـواشـي " ... فركتها بيـدها ... وضـعتها فـي كـيس مـن الـورق ... روت الصـبار وأطالـت الوقـوف، يناديهـا الـزاوي ولا تسـمعه ... يزعـق فتجيبـه مسـرعة ... أدرك ألـم لحظـة الفـراق، أم غائـب تـودع أشـياءها ... أغراضـها ... تـودع حياتها، طمأنها أن الأيام القادمة ستكون أفضل ... تظاهرت بالاقتناع ... إلا أن الوطن غال ... ها هي ستترك حياتها ... أرضها ... ترابها ... سماءها ... لن تشـرب مـرة أخـرى مـن دجلـة ... خيـر مـاء.. سـتبدأ رحلتهـا تجـاه المجهـول ... المعلوم منه فقـط هـو الـزاوي الـذي أحبتـه ... وقـررت منـذ الوهلة الأولى ربط مصيرها بمصـيره ... وحياتهـا بحياتـه ... ومـا تبقـى مـن عمرهـا بعمـره ومـا تبقـى مـن مسـتقبلها

بمستقبله ... عينا الزاوي تنتقل بين الزوجة والابن وزوجته ... الابن غابت كل التعبيرات من ملامحه ... عيناه غائرتان، أما " عامرة " قد حلقت سحب الخوف فوق رأسها ... تجلس تلوك الصمت في انتظار عودة حاجم حاجم في سكون وسكينة ... لونها " مخطوف " " دبلانة " انطفأ بريقها ... تحلق في اللا شيء وتنتظر ساعة الصفر ... تتحرك أم غائب من وقت لآخر تجاهها ... تحتضنها ... تستمد منها بعض الشجاعة أو تحقنها ببعض بقايا الصبر والأمل!

وصل حاجم حاجم ... انتقلوا جميعهم من صحن الدار إلى داخله ... فرش أمامهم طعاما اشتراه ... رائحته " فواحة " ... فراخ مشوية وأشياء أخرى ... أكلوا جميعهم ... نظراتهم مركزة على ما أمامهم، لم يتبادلوا نظرات أو كلمات ... أوصت أم غائب عمها بضرورة تأجير الدار لمن يرعى الزرع ويحب النخل حتى لا يهين نخلتها المنتصبة في صحن الدار تحرسه ... طمأنها خيرا ... رفع أذان الفجر ... تحركوا وراء بعضهم إلى السيارة ... جلس حاجم حاجم على مقعد القيادة ... بجانبه في المقعد الأمامي " أم غائب " ... في المقعد الخلفي " عامرة " و " الزاوي " و " فرج " ... جلس الزاوي بينهما ... ألقى حاجم حاجم تعليماته الأخيرة ... لن يتوقفوا سوى مرتين حتى نهاية الطريق ... المرة الأولى في مدينة " الرمادى " والتي تبعد مائة وعشرين كيلوا مترا عن بغداد ... والتوقف الأخير في " الرطبة " حيث يودعهم ويعود. من الممكن أن يشتروا ما

يرغبون فيه من مدينة الرمادي، سيدخلونها مع الشروق ... يتناولون إفطارهم ... ثم ينتظرهم في سيارته لمدة نصف ساعة ... لا أكثر ... يشترون احتياجات الطريق ... من ماء وطعام ... وهداياهم التي سيدخلون بها على أهلهم ... استدرك حاجم حاجم " أهلنا في مصر "!

الطريق الصحراوي ممهد كالحرير ... السيارة لا تهتز تشق الرياح والبرد ... توقفوا في الرمادي ... أعطى الزاوي أم غائب بعض الفلوس ... رزمة فلوس ... طلب منها شراء شال قطيفة أسود لأمه " نصرة " القابعة تنتظره في جوف الصعيد ... وبعض الأشياء لزوجته " صابرة " ... لم يغادر الزاوي السيارة ... ولم يترك حاجم حاجم مقعد القيادة ... عادوا محملين ... علب شاي ... ملابس ... لنصرة وصابرة ... اشترت أم غائب أشياء خاصة لصابرة ... عادوا إلى مقاعدهم وانطلقت السيارة ... يد الزاوي لم ترفع عن ساعد " فرج " يخشى أن يضيع منه مرة أخرى ... يده الثانية تنتقل من كتف " أم غائب " الجالسة في الأمام وكتف عامرة الجالسة على يمينه ... يغفو قليلا ويصحو ... الطريق لا نهاية له ... إلا انه يعلم نهايته ... الوصول إلى الأردن ومنها إلى مصر، ومن مصر إلى الصعيد ... سيأخذ أسرته كاملة معه ... أبناءه الأربعة ... زوجاتهم، أحفاده ... سيقدم كفنه لأهل القتيل، وسينتهي الأمر ... وينتهي الطريق ... حاجم حاجم لا ينطق ... أطبق عليه الصمت ... عيناه على الطريق ... وعلاماته الإرشادية ... ينظر من وقت لآخر لابنة أخيه " أم غائب " نظرات تمتزج فيها

الشفقة بالألم ... نظرات يختلط فيها الأمل بالرجاء ... نطق أخيرا ... " أمامنا ربع ساعة وندخل الرطبة! ".

صحراء جرداء ... لا شجر بها ولا ماء ... مئات من الخيام ... ألاف من البشر من كل الجنسيات ... سيارات من كل نوع ... نفايات ... فضلات ... زجاجات بلاستيكية فارغة، إطارات سيارات بالية ... أطفال صغار ونساء يبيعون مياه شرب وزجاجات مشروبات غازية ..أكثر من شاب يمر بين الناس يحمل صينية عليها براد شاي وعدة أكواب من البلاستيك ... أطعمة وبضائع ... هواء الصحراء رغم اتساعه يحمل رائحة طعام ... باتشه وشلجم ورائحة طعمية مقلية، وخبز طازج من أين أتى كل هؤلاء الناس؟ السؤال يدق رأس الزاوي بعنف ... كيف خرج هذا الكم من البشر من العراق وكم من الوقت سيقضيه على الزاوي وأسرته في هذا المكان إلى أن يأتي دوره أمام ضابط الجوازات؟ ويسمع كلمة في أمان الله!

هواء شتاء " العصاري " يلفح وجوههم، أعاد الزاوي ترتيب " تلفيحته " واستنشق متعمدا اكبر قدر من هواء العراق ... أم غائب وعامرة وفرج في صمتهم وسكونهم ... ترجلوا من السيارة وتقدموا لمنطقة الجمارك والجوازات ... مبنى قديم ... حاجز زجاجي ... الفتحة تسمح بمرور يد تحمل جواز سفر لا غير ... اصطفوا في الطابور ... وقف بجوارهم حاجم حاجم ... قدموا جوازات سفرهم ... وقدم حاجم وثائق رسمية وأذونات خروج أحضرها معه تسمح

لأم غائب وعامرة بالعبور من النقطة الحدودية ومغادرة العراق.

طالت المناقشة بين حاجم حاجم ومسئول الجوازات ... عامرة لا تقوى ساقيها على حملها ... جلست على الأرض وجلس فرج بجانبها يطمأنها ... يقوى من عزيمتها ... ساعات ويدخلون الأردن ومنها إلى مصر ... الزاوي في حالة استنفار يقرض زوائد شاربه من الغيظ ... أم غائب ترقب المناقشة بين حاجم حاجم ومسئول الجوازات ... وضعت طرف " طرحتها " في فمها ... تجز عليها ... استمعت لطرف من الحديث.. تعلل مسئول الجوازات بأسباب واهية ... تدور حول عدم وضوح الأختام ... عينا أم غائب تطق شررا، لو كان الوضع غير الآن لسبت مسئول الجوازات بأخته وأمه ... الأمور الآن لا تحتمل ... تخرج طرف الطرحة من فمها لتدخله مرة أخرى ... تكاد أن تمزق " الطرحة " من الغيظ والقلق، الزاوي يربت على كتفها ليهدئ من غضبها المكتوم ... الأمور الآن لا تحتمل وإذا حدث شجار مع مسئول الجوازات قد يعيدونهم جميعهم إلى بغداد مرة أخرى، أو على الأقل يتركونهم عدة أيام في هذه الصحراء ... أمواج من البشر تقذف بهم السيارات ويهرعون جريا إلى مبنى الجوازات ... الشمس رغم الشتاء زادت حراراتها وهبطت لتقترب من رؤوس الناس ودماء أم غائب رغم البرودة البادية على الوجوه ... تغلي ... وتغلي ... إلا أن الموقف لا يحتمل ولابد من الكياسة والهدوء حتى تنتهي الرحلة بسلام ... أدارت ظهرها لشباك الجوازات نظرت إلى الصحراء الواسعة ... عادت مرة أخرى تنظر

لطوابير البشـر الممتـدة إلـى مـا لا نهايـة ... توقفـت فجـأة وتجمدت ... مسكت يد على الزاوي ... زوجها ... فكرت ... دبـرت ... قـررت واقتحمـت المكـان ... دخلـت أم غائـب لمسئول الجوازات من الباب الخلفي ... تاركـة بقيـة الصـف أمام الحاجز الزجاجي ... وقفـت خلفـه مباشـرة ... خلعـت أساورها الذهبية الأربعة، وضعتهم أمامه علـى المكتـب ... بسرعة البرق وضع فـوقهم بعـض الأوراق وتنـاول الجـوازات الأربعة، دق ختمه فوق كل جواز ... انتقلوا إلى الجزء الآخر داخل الحدود الأردنيـة وانسـحب حـاجم حـاجم إلـى حـدود بلاده مرة أخرى ... صرخ الزاوي أخيرا ...

" يا دليل التائه ... يا عدوي " ...

أشاروا بأيديهم ولوحوا لحاجم ... في أمان الله ... قبض الـزاوي علـى رسـخ أم غائـب ... واليـد الأخـرى أمسـكت بعامرة ... صرخ فـي فـرج ... زعـق فيـه طالبـا البحـث عـن مكتب تلغراف على وجه السرعة ... أمره بإرسال تلغرافين ... واحد لصابرة بالقاهرة والآخـر لابـن خالـه صـفوت قاسـم عمـر فـي صـدفا ... أملـى علـى فـرج صـيغة التلغـراف ... وبرقت عيناه عندما تذكر صورة " عرفان " المصوراتي عندما كان يملي عليه خطاباته لصابرة ... أملي الصـيغة لفـرج ... صيغة واحدة للتلغرافين " نحـن فـي الطريـق إلـى مصـر ... ومنها إلى الصعيد لتسوية كافة الأمور المعلقة! ".

تمت بحمد الله

محمد غزلان - مصر